بسم الله الرحمن الرحيم

المجازفة

ينشأ الصراع نتيجة تباين الأفكار وتضادها
ويكون عادة سببه نوازع النفس وشهواتها
فإذا لم تسقط أسباب الصراع في القاع
ستسقط فيه لا محالة.

الفصل الأول

السابع والعشرون من شهر ديسمبر - سنة ألفان وعشرة

انهمك الصحفي هشام عبد الرؤف مع أسرته في أحاديث ودية بعد أن تناولوا عشاءا ثقيلا يكتظ باللحوم والمعجنات، راحوا يتناقشون في أمور شتى وأحيانًا يتنادرون على حدث ما حصل مع أحدهم، بغتة رن هاتفه المحمول ليخرجه من حالة الطمأنينة و الإسترخاء إلى حالة أخرى من الانتباه و الحذر لعدم معرفته بالرقم الظاهر على الشاشة، استقبل المكالمة ليأتيه صوت غير مألوف لأذنه يقول في هدوء :

- أريد مقابلتك بعد ساعة في مقهى "الأنس" في حي الدرب الأحمر

سأله هشام في فضول و دهشة:

- من أنت وماذا تريد؟

قال الآخر بنبرته الهادئة الواثقة:

- ستعرف كل شيء عند حضورك، لا تقلق

سأله هشام في عصبية:

- على الأقل أريد أن أعرف بخصوص ماذا
- بخصوص القضية الأخيرة المتعلقة باقتحام المركز الطبي و هروب المقتحمين بعد أن خدعوا أجهزة الأمن.

كان هذا بمثابة إغراء شديد لهشام و إثارة لفضوله فلم يستطع الرفض و الإمتناع عن الذهاب بالرغم من جهله هوية محدثه، كصحفي مخضرم لم يكن ليترك فرصة كهذه تضيع من يده دون أن يحفر و ينقب الأرض بحثا عن الحقيقة. استأذن أسرته بالإنصراف متعللا الذهاب لمقابلة عمل. ارتدى ملابسه الثقيلة في عجالة،غادر المنزل ثم ركب سيارته الصغيرة العتيقة التي يعتز بها كثيرًا ولا يريد أن يجلب لها ضرة، أو حتى يستبدل بها سيارة أخرى جديدة تريحه من عناء محاولاته المستمرة لإصلاح الإعطال التي لا تتوقف، كم من مرة أخضعها للإصلاح لخلل تكرر حدوثه ومع ذلك لم يفرط فيها أبدًا؛ هذا لأنه شخص نمطي، هادئ الطباع، يتجنب المشاكل قدر المستطاع، ويتمسك بالتقاليد والأعراف التي بليت بعضها أو اختفت مع تقادم الزمن، اكتسبت صفاته الجسدية من نمطيته الكثير: قامة متوسطة، جسد بدين، وجه ممتلئ، ظهر الشيب في فوديه وأجزاء من رأسه، تبدو على ملامحه الطيبة بوجه عام، يرتدي نظارة طبية عتيقة، وساعة ذهبية موديل السبعينات، يبدو للناظر له أنه قد سافر عبر آلة زمن أربعين سنة كاملين إلى الوراء، لم يكن ينتمي إلى هذا العصر في شيء، بخلاف هاتفه المحمول الذي أهدي له في عيد مولده الثاني والخمسين منذ عام فائت. وصل إلى العنوان المحدد، ترجل من السيارة في بطء ملحوظ، دلف إلى أحد المقاهي الشعبية التي تنتشر في أحياء مصر القديمة، ثم جلس على كرسي خشبي بسيط و طلب شاي دون سكر، ليرتشف منه رشفات صغيرة متتالية كان يحتاجها لبث بعض الدفء في جسده. فرك يديه ليبعث فيهما بعض الحرارة، تدثر بمعطفه الثقيل اتقاء للبرد وهو يلتفت بين الحين والآخر في ترقب وحذر إلى ما حوله، كان يبدو على وجهه القلق وهو يعاود النظر إلى الطريق كل حين باحثًا بنظره عن ذاك المجهول الذي حدثه في الهاتف منذ قليل. أخذ يمسح بمنديله العرق الذي كان يقطر من جبينه بالرغم من برودة الجو من حوله، كان شعور من يراه وهو يمسح العرق من على جبهته في درجة حرارة منخفضة الدهشة والحيرة معًا وهو يتسائل في استغراب: هل في داخله مرجل يطلق نارًا فتخرج من جسده على هيئة زخات من العرق، أم هو رجل أصابته حمى وهذه زفراتها تظهر على السطح؟

الحقيقة أنه لم يكن يعاني من شيء سوى القلق والتوتر الزائدين عن المألوف، واللذان أصبحا رفقائه منذ سنين عديدة، فمنحا ملامحه عمرًا أكبر من عمره؛ نتيجة لشعوره الدائم بالقلق، عادات أكله الخاطئة، شرهه الشديد للطعام، عدم ممارسته الرياضة إلا نادرًا. كان يغزوه ذلك القلق

الدائم دون رحمة بسبب ما وقع له من أحداث مخيفة أثناء سجنه. تطلع إلى الطريق للمرة العشرين في نفاذ صبر، أخرج من جيب بنطاله حبات بيضاء، تناول منها حبتي مهدئ ثم ابتلعهما على الفور قبل أن يرتشف على إثرهما رشفات من الشاي الساخن. لم يعد هشام ذلك الشاب النشيط الذي يتتبع الحقائق بإصرار مهما كانت صعبة المنال، ومهما تعرض بسببها إلى المخاطر والمشكلات، صار رجلًا آخر، بدينًا غارقًا في المخاوف منذ سجن أربعة أشهر في أحد السجون سيئة السمعة، بعد نشره مقالًا يتهم فيه أحد الوزراء بالفساد، وعلى الرغم من مرور أكثر من خمسة أعوام على تلك الذكرى المريرة، إلا أنه لا يزال يرتعش كلما تذكر تفاصيل هذه الفترة المرعبة من حياته. قطع أفكاره شاب أنيق يقف أمامه مبتسمًا في هدوء، تنهد هشام في ارتياح لقطعه هذه اللحظة البغيضة من أفكاره، والتي يجاهد دائمًا في نسيانها دون جدوى. سأله هشام وهو ينظر إليه في حذر:

- هل أنت الذي هاتفتني منذ...

قاطعه الشاب :

- نعم، أنا الذي تحدثتُ معك بشأن القضية الأخيرة

تفرس هشام في ملامح وجسد الشاب الأسمر الوسيم في حذر، قامة طويلة، قوام رياضي، يرتدي بدلة سوداء أنيقة
تناسب السهر. سأله الشاب في تهكم وهو يجلس أمامه:

- هل ستظل تحملق في وجهي طوال الليل؟

ألقى هشام نظرة إلى ساعته قائلًا في ضيق:

- لقد تأخرت عن الميعاد المتفق عليه نصف ساعة على الأقل!

ابتسم الشاب في هدوء مستفز :

- ينبغي أن أتأكد من أنه لم يتبعك أحد إلى هنا.

شعر هشام بالخطر كعادته كلما تعرض لموقف غامض فقال واجما:

- من أنت؟ وماذا تريد؟
- لا يهم من أنا، المهم هو سبب إحضارك إلى هنا

، ثم مال ناحية الصحفي قائلًا بلهجة مغرية:

- القضية التي تشغل الرأي العام منذ أسبوع، لكن قبل أن نتحدث أود أن أعرف أولًا هل تحدثت مع أحد عن هذه المقابلة؟

ارتجف جسد هشام بالرغم منه ثم قال في سرعة:

- كلا بالطبع، أنا صحفي وأدرك قيمة الأسرار جيدا.

نظر إليه الرجل في صمت سابرًا أغواره ثم ابتسم وقال:

- أعلم أنك صحفي خبير و محنك وإلا ما تحدثت إليك بالذات.

تنفس هشام الصعداء ثم عاود سؤاله في عناد:

- لم تخبرني بعد من أنت؟

هز الرجل الوسيم كتفيه في لا مبالاة:

- أنا مجرد رسول

لم تريحه هذه الاجابة، بل زادته قلقًا فتسائل في عصبية:

- ولماذا اخترتني أنا بالذات لتخبرني بهذه المعلومات السرية؟!

قال الرجل في بساطة :

- كما قلت لك، لأنك صحفي مخضرم تدرك قيمة ما ستحصل عليه

سكت بعدها لحظات، ثم مال نحوه مرة أخرى مستطردًا في حسم:

- ثم أنك لن تتعدى ما سوف أطلبه منك بالتأكيد

كانت نبرته الأخيرة مخيفة فقال هشام في قلق:

- ما الذي تريده مني بالتحديد؟

عاد الرجل بظهره إلى الوراء في اطمئنان بعد تيقنه من وصول التأثير المطلوب قائلًا:

- كل ما أطلبه منك هو أن تكتب رواية بالأحداث التي سأمليها عليك.

صاح الصحفي في استنكار ممزوج بالدهشة:

- رواية! هل جشمتني عناء الحضور في هذا الطقس البارد لأكتب رواية؟
- نعم رواية، ولكنها ليست مجرد رواية عادية، ستكتب تفاصيل ما حدث في قضية اقتحام المركز الطبي بدقة.

قال هشام بخيبة أمل :

- ولكنني ظننت أنك ستخبرني بمعلومات سرية لايعرفها أحد!

قال الرجل مستدركا في سرعة:

- بالتأكيد، لكنك لن تكتب مجرد معلومات فقط، بل سأمدك بالقصة كاملة ولكن بأسماء مستعارة حتى لا يكشف أمرهم.

تسائل هشام في حيرة:

- ولماذا رواية! من الممكن أن أكتب مقالًا يثير الرأي العام مثلًا
- هل ستتحمل مسئولية ما ستكتبه يا سيد هشام؟

عبث هشام بنظارته في توتر ثم قال:

- كلا بالتأكيد

قال الرجل بنبرة انتصار خفية:

- إذًا ستكتب رواية تحت مسمى «المجازفة» تحكي فيها عن مأساة أبطالنا، وعن صراعهم المرير دون أن تقع تحت طائلة القانون.

هتف هشام معترضا:

- أبطالنا! ولكنهم كما سمعنا إرهابيين!

ابتسم الرجل في غموض وهو يقول:

- هذا ما يتناوله الإعلام لكن الحقيقة شيء آخر.
- ولماذا هذا الإسم بالذات؟
- له وقع خاص عندي؛ هل هناك مانع؟

التزم هشام الصمت فسأله الرجل في صبر :

- هل ستكتب الرواية أم لا؟

تمتم هشام في عصبية:

- وما يدريني أنها الحقيقة.

مط الرجل الأسمر شفتيه ثم قال:

- لا يوجد أي تأكيد يارجل، الخيار لك، إما أن توافق أو ترفض، ولكن تذكر أنها ستكون مجرد رواية.

صمت هشام للحظات ثم سأله بعد ترد:

- ما هي الفائدة العائدة علي من هذه الرواية؟

قال الرجل في سرعة وكأنه ينتظر هذا السؤال بالتحديد:

- بخلاف العائد المادي، ستكتب رواية تكتسب من خلالها سمعة جيدة في عالم الأدب، خاصة عندما تظهر الحقائق تباعًا ثم يقارنها الناس برواياتك.

لم يبد على هشام الإقتناع، فاستطرد :

- سيأتي اليوم الذي سيعرف فيه الرأي العام الحقيقة كاملة وساعتها ستخلد اسمك في عالم الصحافة أيضًا، ما رأيك؟

خوفه من هذا الغريب وما يمكن أن يجره عليه من ويلات جعله يتردد طويلًا ثم حسم رأيه وقال:

- حسنًا، ماذا ستضيرني التجربة؟! على أي حال اتفقنا.

ابتسم الرجل في ظفر، أخرج ملفًا متوسط الحجم من حقيبة صغيرة ثم أعطاه للصحفي وقال:

- هاذا الملف به كل تفاصيل القضية الأخيرة، تفاصيل خرجت من فم كل من شارك في هذه العملية بنفسه.

****

التاسع والعشرون من شهر نوفمبر

انطلق رنين المنبه فامتدت يد حسام تطفئه في سرعة قبل أن تستيقظ زوجته، تأمل ملامحها الجميلة في هدوء ليطمئن أنها ما زالت نائمة، كاد يطبع على وجنتها قبلة لكنه خشي أن تستيقظ من جراء ذلك، ذهب إلى الحمام للإغتسال ثم تناول إفطارًا بسيطًا ثم شرع في ارتداء ملابسه للذهاب إلى العمل. كان قد اعتاد هذه الحياة الرتيبة الهادئة المملة منذ ترك ممارسة رياضة الملاكمة كمحترف؛ بعد أن أثقلته بأعباء مالية لم يستطع الالتزام بها، لكن حبه الشديد لها و شغفه بها دفعه لمواصلة التدريب في غرفة أعدها خصيصًا لممارسة تلك الرياضة، لهذا لا يزال يحتفظ بجسد قوي وعضلات مفتولة و لياقة بدنية مرتفعة. عمل حسام في وظيفة أمين مخزن في شركة خاصة عقب زواجه من نادية بعد قصة حب ملتهبة، أثمرت تلك الزيجة عن اثنين من الأبناء، يحيى ذو السبعة أعوام وسلمى التي تبلغ من العمر عامين فقط.

ذهب حسام إلى عمله دون الحاجة إلى إيقاظ زوجته؛ حيث أن اليوم هو إجازة مدرسية وقد أخبرته زوجته أنها ستصطحب الأبناء إلى إحدى الحدائق العامة ليمارسوا ألعابهم المفضلة

بدأ حسام عمله الروتيني المعتاد من استلام وتسليم المواد المخزونية بعد التأكد من مطابقة أعدادها ومواصفاتها، وترتيب المواد في الأماكن المخصصة لها، وفي أثناء انهماكه مال إليه زميل له قائلًا في ضيق:

- هل قرأت هذا الخبر «اختفاء فتاة بعد أن خرجت من منزلها متوجهة إلى عملها صباح أمس»؟

أجابه حسام ساخطًا:

- أصبح هذا الأمر الخطير يحدث كثيرًا في الآونة الأخيرة

قال زميلا آخر في غيظ:

- نعم، الأمر أصبح مخيفًا بحق، صرت أخشى على أطفالي عند ذهابهم إلى مدارسهم وعدتهم.

رد حسام وهو يعاود الإنهماك في عمله:

- ما باليد حيلة يا مصطفى، لن نوقف حياتنا رغمًا عن ذلك

و هز الأخير رأسه موافقًا في أسى دون أن ينبس بكلمة.

انتهى حسام من عمله في الثالثة عصرًا، ثم توجه إلى بيته وهو يمني نفسه بتناول وجبة دسمة، ثم أخذ قسطًا من النوم بعدها مباشرة. استقبله ابنه

يحيى عند عودته بوجه تبدو عليه علامات الإنهاك والتعب، فقال لزوجته في قلق:

- يبدو أن يحي قد أرهق نفسه كثيرًا في اللعب، فهو يبدو عليه الإرهاق بشكل واضح!

قالت نادية محاولة طمأنته:

- هذا صحيح، لكنه ربما يعاني من نزلة برد عادية.
- إذًا ينبغي علينا الذهاب إلى الطبيب لفحصه.

ردت زوجته باسمة:

- سأذهب به إلى الطبيب غدًا، لا تقلق مجرد إرهاق نتيجة اللعب

كانت تحاول طمأنته، إلا أن عدوى القلق بدأت تدب داخل قلبها في خطوات ثقيلة بطيئة فاستحال اطمئنانها خوفا و ثقتها ذعرا و خوفا.

****

لم يمر على حديثهم الأخير سوى ثلاث ساعات حتى سائت بغتة حالة يحي كثيرًا، في البداية ظهرت عليه بعض الأعراض كارتفاع في درجات الحرارة، ثم استحالت إلى تشنجات بطنية و تقيؤ. و ما إن انتبهت أمه لذلك حتى صرخت باسم ابنها في هلع، سمع حسام صراخ زوجته الملتاعة فقفز من فراشه كالملدوغ وانطلق يعدو نحوها في جزع، انفطر قلبه وهو يشاهد ابنه يتأوه من الألم، استفاق حسام من الصدمة صارخًا:

- نادية لا بد أن نذهب به إلى الطبيب الآن.

أسرعا إلى أقرب طبيب باطنة الذي نصحهم بضرورة الإسراع به إلى قسم الطوارئ؛ بعدما تبين أن يحيى قد أصيب بتسمم لم يعرف سببه، حمل حسام ابنه وهو يهبط به بسرعة على درجات السلم، تبعته نادية وهي تلهث في عنف و انفعال؛ لكنها لم تكن لتترك ابنها وهو في هذا الوضع الخطير أبدًا، لحقت بحسام الذي أوقف سيارة أجرة ليركبها دون انتظارها، فألقت بنفسها داخل السيارة في اللحظة الأخيرة التي اسرعت مبتعدة بعد أن أمره حسام بالإنطلاق بأقصى سرعته نحو قسم الطوارئ في القصر العيني كان الازدحام المروري خانقًا ولم يكن بيد السائق من حيلة إزاء هذا الازدحام والتكدس المروري. بلغ توتر حسام أشده بينما تخضلت عينا نادية بالدموع وهي تحتضن ابنها بقوة وكأنها تحميه من خطر محدق، لم يستطع حسام صبرًا فنزع يحيى من بين يدي أمه ثم انطلق به يركض بين السيارات والحافلات التي كانت تمشي ببطء مستفز وتطلق أداة التنبيه بعنف يصم الآذان. لم ينشغل عقله بذلك كله، كان كل همه أن يصل في الوقت المناسب وأن ينقذ ابنه قبل فوات الآوان. رأته نادية من بعيد وهو

يعدو بابنه بين المارة والسيارات كالمجنون، رأته يصطدم بهذا في عنف ويصرخ بذاك أن يبتعد، كانت تعلم أنها لن تستطيع اللحاق به أبدًا مهما فعلت، فاغرورقت عيناها بالدموع شاعرة بالعجز يحطم كيانها تحطيمًا.
لم يتوقف حسام عن الركض لحظة واحدة، واكتفى الناس بالنظر إليه في تساؤل واستغراب ودهشة، عدا واحد، كهل أشيب الفودين نحيف الجسد رأى المشهد وأدرك فداحة الأمر من النظرة الأولى، فمال بمقود دراجته البخارية ليلحق بالرجل الذي يجري كالمجنون وهو يحمل طفلًا فاقد الوعي على يديه، اقترب منه في سرعة و هتف به :

- اركب بسرعة، هيا

لم يتردد حسام لحظة واحدة، كان كالغريق الذي يتشبث بطوق نجاة بعد أن كاد يدركه الغرق، صاح حسام:

- أريد الذهاب إلى القصر العيني بأقصى سرعة أرجوك.

انطلق الكهل بسرعة وهو يتفادى بمهارة الإرتطام بالمارة، ويمر ببراعة بين المركبات وعربات الباعة الجائلين كأنه يفعل ذلك طيلة حياته، و لم يكن ذلك الرجل بحاجة لمعرفة أهمية الوقت في مثل هذه الحالات.

****

لاحت لحسام بوابة القصر العيني تقترب من مكانه في سرعة، ومع كل متر يقترب، كان يقترب معه الأمل مقترنًا بالخوف، و الرجاء باليأس، و الحياة بالموت.
اقتربت البوابة الرئيسية فصاح حسام :

- لا تنتظر الإجراءات الأمنية، اخترقها بسرعة.

وكأن الرجل كان ينتظر مثل هذا الأمر فقد اخترق البوابة بدراجته هاتفًا:

- ابتعدوا

ما إن لمح الناس الدراجة البخارية تقترب منهم في سرعة و على متنها النحيل سائقها ورجل يحمل بين يديه طفلا فاقد الوعي حتى ابتعدوا في كل مكان في ذعر، صرخ فيهم رجال الأمن أن يتوقفوا، لكن حسام وصديقه لم يبالوا بهم وهم يواصلون انطلاقهم حتى وصلوا إلى مركز السموم، دلف حسام حاملًا ابنه وهو يصرخ بالأطباء سرعة إنقاذ ابنه، تلقفته يد الأطباء من بين يديه ليقوموا بالفحوصات اللازمة بكل سرعة واهتمام، في حين لحق بهم رجال الأمن شاهرين أسلحتهم وهم يأمرونهم في صرامة وغضب بعدم المقاومة و إظهار هوياتهم الشخصية.

****

- أريد أن أرى يحيى الآن

قالت نادية عبارتها وهي تبكي في حرقة، حاولت أمها تهدئتها وطمأنتها و هي تحتضنها في حنان، و ربت والدها على كتفها وهو يخبرها بيقين أن ابنها سيخرج من كبوته في أسرع وقت، هم حسام بالتدخل لولا أن قاطعه الطبيب المسئول عن حالة يحيى وهو يشير إليه باتباعه، تطلع حسام إلى زوجته لحظة في قلق؛ كان يخشى من حدوث ما لا يحمد عقباه، كان هذا شعور نادية أيضًا التي دفنت وجهها بين يديها هربًا من الواقع، دلف حسام خلف الطبيب إلى مكتبه ثم سأله في قلق لم يستطع إخفائه:

- كيف حال يحي يا دكتور؟

أجابه الطبيب في هدوء و تعاطف:

ظهر أثناء الفحص إصابة ابنك بتسمم نتيجة تناول فطر "الأمانيات السام"، استخدمنا معه عقار مضاد وتم السيطرة على الحالة ولكن...

- ولكن ماذا أيها الطبيب؟

قال :

- لقد تأخرتم في اكتشاف حالته وأنا أشك بتضرر الكبد أو الكلى بضرر بالغ، نصيحتي أن تبدأ بفحص الكبد أولًا.

و كانت الصدمة واضحة جلية على وجه حسام الذي لم ينبس ببنت شفة.

****

انتظر حسام وزوجته عدة ساعات حتى استقرت حالة يحيى ثم عادوا به إلى البيت للاستعداد للخطوة التالية مباشرة، فلكل دقيقة ثمنها، و ما إن ينشق الصباح حتى يأخذاه إلى معهد الكبد والأورام ليتأكدا من عدم حدوث مضاعفات له. توقفت سيارة الأجرة أمام مبنى المعهد القومي للأمراض المتوطنة والكبد، دلفا إلى المبنى الضخم المطلو باللون الأبيض حيث تكدست أمامه السيارات وازدحم أمامه الناس من كل صوب و حدب، كان المنظر سيئًا في نفس حسام الذي اضطر إلى تجاهل تلك الصورة القاتمة والإنتظار حتى تفتح أبوابه في التاسعة أمام الزائرين من المرضى وذويهم الذين ازدحموا في طوابير طويلة، وافترش آخرون ممن حصلوا على تذكرة الكشف سلم المبنى، بينما سمع غالبية المرضى يشتكون من نقص في بعض الأدوية داخل الصيدلية، مما يضطرهم لشرائها من الخارج بأسعار باهظة. كان هذا المنظر الضارع يزيده ضيقًا فوق ضيقه، فجعله

يلعن الفقر الذي يضطره إلى الانتظار في طابور طويل يعلم الله وحده متى ينتهي.
شعرت نادية بما يعانيه زوجها فربتت على كتفه قائلة:
- لا بأس يا حسام سيحين دورنا سريعًا إن شاء الله
صاح في غيظ:
- متى يا نادية؟ أشعر أن أمامنا سنة على الأقل حتى يحين دورنا.
لم تستطع مداراة ما يعتريها من كآبة، لكنها قالت محاولة تهدئته:
- يسير علينا ما يسير على غيرنا، ما باليد حيلة.
قال في استسلام ممزوج بالغضب:
- نعم ما باليد حيلة للأسف.
انتظرا أكثر من ثلاث ساعات كاملة حتى حان دورهم، كاد حسام خلال تلك المدة يسيتشيط غضبا، دلفا إلى طبيب الفحوصات الذي طلب منهم الانتظار خارجًا حتى ينتهي من فحصه، انتظر حسام و نادية والقلق يكاد يعصف بهم على أمل أن تكون نتيجة الفحوصات سلبية، كان يتمنى أن يبث في زوجته الطمأنينة في هذه اللحظات المدلهمة، لكنه هو نفسه كان في مسيس الحاجة إلى من يطمأنه،
مضى الوقت بطيئًا، ثقيلًا، أجرى فيه الطبيب تحليلًا للدم بحثًا عن علامات لاضطراب وظائف الكبد، فحص فيروسات التهاب الكبدي الوبائي، اختبارات التصوير لرصد أي تصلب أو تشنج في الكبد، أخذ عينة من الأنسجة لتحديد درجة فشل الكبد، ثم خرج الطبيب من غرفة الفحص و دعاهما إلى مكتبه قائلًا في أسف:
- لقد أصيب ابنكم بتليف الكبد نتيجة الأكل من الفطر المسمم، لذا فإنه يحتاج لزراعة كبد في أسرع وقت.
بدا عليهما علامات الصدمة و الإنهيار، شعر حسام بحزن مرير بعد أن انقطع خيط الأمل الذي كان يتعلق به وحل مكانه حبل من اليأس التف حول رقبته في عنف حتى كاد يزهق روحه، لم يشعر في حياته كلها بمثل ما يشعر به الآن من اليأس والإحباط و المرارة. أما نادية فكان حزنها أضعاف ما يشعر به زوجها؛ فالأم لا تتحمل أن يصيب وليدها أي مكروه، لا تطيق أن يشاك بشوكة، فكيف وهو بين الحياة والموت؟ تمنت أن تكون في حالة أشد مما به ألف مرة ولا يصاب هو بنفحة منه. قاطع الطبيب أحزانهما قائلًا:
- أقدر ما أنتما فيه تمامًا، إلا أن الحزن والبكاء لن يجديا شيئًا.
تمالك حسام نفسه وهو يسأله في صعوبة بالغة :

- وما الذي يجدي إذًا يا دكتور ؟
أشار الطبيب بيده وهو يقول في لهجة عملية :
- سيكون هناك ثلاثة مراحل :
أولًا إجراء تقييم لمعرفة ما إذا كان مناسبًا لعملية زرع الكبد.
ثانيًا الذهاب إلى قائمة الانتظار حيث ستضطر إلى الانتظار حتى يصبح كبد المتبرع متاحًا.
ثالثًا عندما يكون الكبد متاحًا سيذهب إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية لإزالة الكبد المتضرر واستبداله بآخر سليم.
سأله حسام في يأس:
- ألن تنفع معه الأدوية؟
هز الطبيب رأسه نفيًا:
- للأسف، هذه حالة تليف كبدي شديد ولن تنفع معه إلا الزراعة.
قال حسام و الأسى يكسر روحه :
- هل العملية خطيرة يا دكتور؟
- الطب صار أكثر تطورًا من ذي قبل، لكن هذا لا يمنع وجود بعض الخطورة بالطبع.
تلاقت نظرات الزوجين في هلع، ثم سأله حسام :
- و ما هي قائمة الإنتظار تلك؟
- لست وحدك يا سيد حسام، فهناك العشرات غيرك الذين ينتظرون زراعة كبد بدلًا من كبدهم التالف.
سألته نادية و القلق يعصف بها عصفا :
- ماذا يحدث إذا تأخر دورهم قبل الميعاد الحتمي للقيام بالعملية؟
قال الطبيب في أسف:
- يموت حوالي خمسون مريضًا كل عام قبل أن يحل دورهم، فمرضى تليف الكبد لا يستطيعون الانتظار طويلًا بخلاف مرضى تليف الكلى الذين يتحملون الإنتظار لوقت أطول.
تبادل حسام وزوجته نظرات خائفة مذعورة، ثم سأل الأول الطبيب في ضراعة:
- ما الذي أستطيع فعله لأنقذ ابني أيها الطبيب؟
قال الطبيب و هو ينظر إلى عينيه مباشرة :
- ليس أمامك إلا طريقين لا ثالث لهما، إما أن تنتظر في قائمة الانتظار حتى يحين دورك، وإما أن تقوم بالعملية على نفقتك الخاصة.

- كم تبلغ تكاليف العملية؟
- حوالي مئتين وخمسون ألف جنيه على الأقل

لاحت في وجه حسام و نادية علامات الارتياع واعتصر الألم قلبيهما في قسوة لهول الرقم، حدق حسام في الطبيب في دهشة كبيرة، لم يكن ممن لديهم صبابة من المال تيسر عسرته عند الأحداث المدلهمة، وهو الموظف البسيط الذي يتراكم عليه أحيانًا الإيجار شهرين متتابعين، ذهوله جعل لسانه ينعقد، أحنى رأسه إلى أسفل في أسى وعجز؛ فما سمعه كان كارثة بكل المقاييس، تطلع حسام إلى زوجته التي تبكي دون انقطاع، ثم علت وجهه نظرة صلبة، صارمة، حازمة، نظرة رجل اتخذ قرارًا بالغ الخطورة و التهور، قرارًا بالمجازفة بحياته نفسها لو اضطر لذلك، بعد أن أصبح في سباق محموم مع الزمن، من أجل ابنه.

****

عاد حسام مع زوجته إلى منزلهما منهكي النفس و الروح والجسد، بعد أن تركوا يحيى بأمر من الطبيب تحت الملاحظة، والتي قد تستمر إلى عدة أيام، دخلت نادية غرفتها محطمة الفؤاد، مهشمة الروح، كل ما حولها أمسى رماديًا باهتًا، لم تكد تصل إلى الفراش حتى ألقت جسدها في انهيار تام، في حين جلس حسام على أريكته وهو مثقلًا بالهموم، قد ملأ الحزن قلبه وروحه، لا يدرى ماذا يفعل، إنه لا يملك من حطام الدنيا شيء، و لن يستطيع أبدًا تدبير هذا المبلغ الخيالي، وعندئذ سيضطر للإنتظار في طابور طويل حتى تجرى العملية الجراحية، والتي من النادر أن تجرى في الوقت المناسب، وعندئذ قد يخسر يحيى حياته، لعن حسام الفقر الذي يوشك أن يخسر ابنه بسببه للأبد، لم يبغض في حياته شيئًا مثل بغضه للفقر في تلك اللحظة، يخشى أن يرزأ في ولده أحب الناس إلى قلبه، لكنه لن ينتظر معجزة تحدث، لم تعد تحدث معجزات في عالم الواقع، كما يقولون زمن المعجزات قد ولى وانتهى، لن يعيش أحلام اليقظة، لن يبنى أملًا على سراب، لن يجلس مكتوف اليدين دون أن يبذل كل ما يستطيع، إنه لا يعارض القدر، و لكن لا أحد يستطيع أن يجزم بعمل القدر؛ فيد القدر تعمل دائمًا في الخفاء، و من يظنون أنهم يعرفون صنائع القدر من الحمقى كثر. كان أمامه مشكلة عسيرة وهي توفير المال اللازم في الوقت المحدد، مائتان وخمسون ألف جنيه، يا له من مبلغ! إن مجرد التفكير فيه أمر يبعث في نفسه اليأس و القنوط حتى من دون محاولة، تسائل في إحباط: ماذا يملك في هذه الحياة ليبيعه، ما الذي يتميز فيه ليعرضه؟ و كانت الإجابة القاسية الصادمة على الفور، إنه لا يتميز في شيء، حانت منه التفاتة إلى

غرفته الخاصة، غرفة يمارس فيها الملاكمة كلما واتته الفرصة، إنه يستطيع أن يستغل موهبته في هذه الرياضة ليخوض نزالًا فاصلًا حتى يحصل على المال الذى يريد، كان قد علم منذ فترة أن مدربه السابق قد أقام في ناديه خفية صالة تعد لتقام فيها مباريات فاصلة، يشترك فيها لاعبين من شتى بقاع العالم، لكن نشاطها لم يبدأ بعد حيث أنها في طور التحضير، لكن السؤال الأهم الذي هاجمه بقسوة: هل يصلح لمثل هذه المباريات المصيرية؟ لاسيما أنه لم يعد يمارس الملاكمة كرياضة احترافية منذ عدة سنوات، لا بد من سؤال مدربه في هذا الأمر، سيذهب إليه ليطلب السماح له في خوض مباراة واحدة فقط من أجل الحصول على المبلغ المطلوب إذا أمكن، لكنه سيجرب حلًا أخيرًا قبل أن يذهب إلى مدربه و...

- حسام!

التفت ناحية زوجته التي تقف قبالته في ضعف وانكسار وقد انتفخت عيناها من البكاء، قام إليها في شفقة وعطف، اغتصب ابتسامة دارى بها حزنه؛ إنه يدرك كم تتألم وتأن، همس في حنان:

- لن أتردد لفعل أي شيء من أجل يحيى، سأجازف بحياتي نفسها لو اقتضى الأمر، لا أريدك أن تقلقي.

كانت تعرف كم هو صادق و مخلص، وسيفعل المستحيل نفسه لإنقاذ ابنه، لكنها تخشى عليه أيضًا من عواصف تفكيره وردود أفعاله الغاضبة، لا تعرف فيما يفكر الآن، وما القرارات التي اتخذها ولم يفصح عنها، قطع أفكارها قائلًا في صوت عميق أو هكذا خيل لها :

- لا داعي لليأس يا نادية، ستمر هذه الأزمة على خير.

استفاقت نادية على صوته كأنما استفاقت من حلم عميق، سألته في توتر :

- هل فكرت في حل لهذه الأزمة يا حسام؟

صمت حسام وهو ينظر إلى اللا مكان، ثم عاد إليها قائلًا :

- ليس بعد

أثار هدوءه خوفها فقالت في عصبية:

- لو لم تصل إلى حل لما حافظت على هدوئك هذا!

قال في حذر:

- الهدوء لا يعني شيء

قالت في عصبية:

- أنا زوجتك يا حسام، لا بد أن تشاركني القرارات المصيرية

لم يستطع أن يخبرها بما نوى فعله؛ فهو غير متيقن من استطاعته خوض قتال للمحترفين والفوز فيه، الأمر يبدو جنونيًا، لا يعرف كيف جائته

الفكرة، ربما من السماء، ربما من الشيطان! لكنه سيجازف من أجل ابنه، ومن أجل أسرته، وضع يديه على كتفها، قال وهو يتطلع إلى عينيها:

- أنا لا أخفي عنك سرًا، يجب أن تثقي بي، سنجد حلًا بإذن الله.

نظرت إلى عينيه في شك؛ إنها متأكدة من أنه يخفي عنها شيئًا ما، لكنه لن يفصح عنه أبدا، دفنت وجهها في صدره هامسة في انفعال:

- لن نستطيع أن ندبر هذا المبلغ أبدًا يا حسام

قال حسام في حزم :

- لا تفقدي الأمل قط في رحمة الله عز وجل.

قال عبارته وهو يحتويها بين ذراعيه ليبث فيها الطمأنينة، إلا أنه بالفعل لم يكن يدري ماذا سيفعل وكيف سيتصرف؟

****

توجه حسام في صباح اليوم التالي إلى أحد المستشفيات الخاصة لزراعة الكبد، ليعرض عليهم أن يدفع ثمن العملية على أقساط يسددها في انتظام، حتى لو اضطر إلى الإمضاء على كل ما يحتاجوه من ضمانات تضمن لهم حقهم في حالة إذا ما قصر في دفع مستحقاتهم، لم يكن يهمه ما قد يحدث له حتى لو كان مصيره السجن. دلف إلى المستشفى الاستثماري وقلبه يختلج بعنف، لو نجح في مسعاه سينقذ ابنه في أسرع وقت، أما لو فشل، طرد حسام فكرة الفشل من عقله بشراسة، بلغ عند هذه اللحظة حجرة مدير المستشفى، التقط نفسًا عميقًا ثم طرق الباب وانتظر، دلف عندما سمع صوت المدير يدعوه للدخول، تأمله مدير المستشفى ببشرته السمراء وشعره الأسود وقامته المتوسطة وملابسه المصرية الخالصة في صمت، ثم قال :

- أية خدمة أستطيع أن أقدمها لك يا سيد؟

أجابه حسام وهو يتطلع إلى اللافتة الموضوعة على مكتبه:

- اسمي حسام يا دكتور مازن.

ابتسم المدير وهو يقول :

- تفضل يا أستاذ حسام، كيف يمكنني أن أخدمك؟

استجمع حسام شجاعته قائلًا:

- أريد أن أجري عملية زراعة كبد لابني؛ حيثُ أنه مصاب بتليف في الكبد ويحتاج إلى تلك العملية بأقصى سرعة.

هز المدير رأسه متفهمًا وهو يشير بيديه ببساطة قائلًا:

- بالطبع، من أصيب بتليف في الكبد يحتاج إلى الزراعة دون تأخير، لا يوجد حل آخر، وفي هذه الحالة سنبدأ بإجراء العملية خلال يومين

من الآن، بعد إجراء فحوصات ما قبل العملية للتأكد من إستعداده لإجراء العملية، ولكن من سيقوم بالتبرع بجزء من كبده للمريض؟
قال حسام :
- أمه لديها نفس فصيلة الدم ونحن مستعدون لإجراء الفحوصات اللازمة في أسرع وقت ممكن.
- حسنًا، سنبدأ فور الانتهاء من الفحوصات اللازمة.

تنحنح حسام كأنه يهم بالحديث فرنا المدير إليه ببصره في صمت، قال حسام في صوت بدا خافتًا بعض الشيء :
- ولكن هناك مشكلة في موضوع تكاليف العملية.

انعقد حاجبا الطبيب وتقطب جبينه كأنما لم يكن يتوقع شيئًا مثل هذا، سأله بصوت ظهر فيه الضيق:
- ماذا تعني بتكاليف العملية؟
- قال حسام في حرج بالغ واكب احمرار وجهه:
- أقصد أنني ليس معي ما يكفي ليغطي تكاليف العملية كاملة.

ابتسم المدير وهو يقول ساخرًا:
- هل تظن نفسك في جمعية خيرية يا هذا! إنه مستشفى استثماري ضخم، صرح كبير بناه أحد أكبر رجال الأعمال في البلد.

لاذ حسام بالصمت، لم يكن يتخيل أبدًا أن يضع نفسه في هذا الموقف المهيض قط، وهو الذي يضع كرامته دائمًا فوق أي اعتبار، لكن ابنه الذي يعاني أشد المعاناة لا يسمح له بالاختيار أو المكابر. سأله المدير في نفاذ صبر :
- ماذا ستفعل الآن يا سيد حسام؟ ليس عندي وقت للتفكير.

نظر إليه حسام في غيظ، كاد يحطم وجهه بلكمة قاسية لكنه تماسك في صعوبة، لم يكن من مصلحة ابنه أن يفقد أعصابه في هذه اللحظة الحرجة بالذات، قال حسام :
- معي أربعين ألفًا مقدمًا لإجراء العملية والباقي أسدده على أقساط.

هتف المدير في غلظة:
- قلت لك نحن لسنا جمعية خيرية، إذا لم تملك تكاليف العملية كاملة، فأرجوك غادر فورًا، فليس لدي وقتًا لأضيعه في ترهات .

هب حسام من مقعده في انفعال، ثم صاح في حدة:
- أي قوم أنتم! ابني بين الحياة والموت و إذا لم تقم بإجراء العملية بأقصى سرعة سيرحل عن الدنيا بأسرها، سأدفع لك أربعين ألفًا والباقي على أقساط، فلماذا الرفض والتعنت؟! ألستم كما يدعون

ملائكة الرحمة، ألا تشعرون بمعاناة الآخرين، أم صرتم وحوشًا ضارية لا يهمكم سوى جمع المال؟

ضغط المدير على زر الاستدعاء وهو يصيح في غضب:

- بل أنتم الذين نسيتم أنكم لا يحق لكم دخول مثل هذه الأماكن الراقية.

تسمر حسام في مكانه غير مصدق لما يسمع، أيعقل أن يوجد على الأرض مخلوق كهذا؟!

استجاب ثلاثة من رجال الأمن في سرعة، صاح المدير في غلظة:

- لا تسمحوا له بالدخول مرة أخرى وإلا طردتكم جميعًا.

جذبه رجال الأمن في قوة، قاومهم حسام في عنف صارخًا:

- لو حدث لابني أي مكروه ستكون أنت المسئول أمامي، وساعتها سأنتقم منك أشد انتقام.

صاح المدير في غضب:

- خذوه إلى أقرب قسم شرطة، أبلغوهم أنه هددني بالقتل.

جذبه رجال الأمن في غلطة فاستسلم لهم حسام وهو يرمق المدير بنظرة ساخطة، حاول المدير أن يسترخي بعدما غاب حسام عن وجهه، وأن يطرد من فكره كل ما جرى منذ قليل، ثم تسائل مستغربا: أي قوم هؤلاء، يظنون أن لديهم رفاهية إجراء عملية خطيرة في مكان كهذا بأربعين ألف جنيه فقط، يا لهم من غرباء!

****

اقتاده أفراد الأمن إلى قسم شرطة لتقديم محضر بتعديه على مدير المستشفى الخاص، باشر المحضر الإجراءات بعد أن استمع إلى الواقعة من أفراد الأمن، اعترض حسام على أقوالهم وطالب بتحرير محضر آخر يتهم فيه مدير المستشفى بالتعدي عليه بالسباب والإهانة، انتهى المحضر فغادر حسام قسم الشرطة وهو يشعر كأن خنجرًا باردًا غاص في قلبه حتى الشغاف، ويا لها من طعنة نجلاء نفذت ليست في قلبه فقط، بل في أعماق روحه وصميم كرامته. سار هائمًا على وجهه لا يدري إلى أين يذهب، لم تسمح له كرامته بالبكاء، شعر لأول مرة في حياته بالعجز، جاهدت دمعة عنيدة للفرار من مقلتيه، لكنه قاتل ببسالة حتى تظل حبيسة الدار، لثلاث ساعات كاملة سار حسام في شوارع القاهرة وحواريها، لن أبالغ إذا قلت أنه لا يعرف كيف تفادى السيارت التي تقطع الطريق بغتة، أو كيف عبر دون أن يصطدم بأحد من المشاة، حتى أحس بالتعب فقرر الجلوس في إحدى المقاهي حينما بدأ الليل يسدل أستاره السوداء، معلنا انتهاء فصل، من مسرحية تتكون من ألف فصل، لم يكن يرتدي إلا قميصًا دون سترة، و

مع ذلك لم يشعر بالبرد على الإطلاق، كان كمن انفصل عن العالم من حوله، وبدا كنقطة شاردة في بحر الفضاء السردي، لا يتبع قوانينه ولا يسير في نظامه حتى أنه لم يستجب لنداء هاتفه المحمول المتواصل، بالرغم من علمه أن زوجته تحاول الاتصال به لتطمئن عليه؛ قتل يأسه اهتمامه. فأنشأ يفكر في ولده الغائب عن الوعي، هزمته دمعة عنيدة بائسة فأخرجته من بحر ذكرياته إلى شاطئ يأسه، ما أجمل الهروب عندما تحاصرك الكروب وتسجنك الهموم ويقتلك القلق، كم تمنى لو كان كل ما يحياه كابوسًا لعينًا ثم يستيقظ منه ليزاول مهنته البسيطة حتى الثالثة عصرًا، ليعود بعدها إلى أسرته فيحيا معهم أجمل اللحظات، تنهد في حسرة، لا داعِ لخداع النفس، إنه لا يحيا كابوسًا أو حلمًا مزعجًا ليستيقظ منه بعد ذلك مُلقيًا كل ما رآه خلف ظهره، و مستعيذا بالله من الشيطان اللعين، إنه يحيا الواقع بكل آلامه ومراراته وحسراته، لا بد أن يدرك مصيبته حتى يعثر على مخرج منها، تطلع إلى الناس من حوله في عدم اهتمام، هكذا الناس دومًا مقبلين على مصالحهم، يحيون واقعهم مهما كان أليمًا، ليسوا كلهم سعداء بالتأكيد، لكنهم يسعون دائمًا للأفضل ويخلقون فرصًا من العدم، أطرق برأسه إلى الأرض مخاطبا نفسه: كانت تجربة صادمة فاشلة إلا أنها كانت خطوة لا بد منها،و لن تقف الدنيا بعد هذه التجربة ولا ألف تجربة مثلها.

كان يعلم أن الشيطان ينتظر بلهفة ضعف الإنسان في هذه الأحايين ليوقعه في مصيدة اليأس والقنوط، وربما في مصيدة الإعتراض والكفر، لكن، لم يمت ابنه بعد، ما تزال هناك فرصة، و المؤمن لا يعتريه اليأس أبدًا. قام من مجلسه موقنا من الفرج بعد فورة يأسه، قائلًا العبارة الشهيرة في حزم وعناد :

- استعنا على الشقى بالله.

ثم استقل سيارة أجرة قاصدًا بيته؛ فزوجته تكاد تموت قلقًا عليه.

****

سمعت نادية صرير الباب يفتح في حرص، فتركت صديقاتها اللاتي جئن لمواساتها لتستقبل حسام الذي كان يبدو عليه الإرهاق والتعب، سألته في قلق:

- أين كنت منذ الصباح؟ لقد أصابني الرعب بسبب عدم استجابتك لمكالماتي من أن يكون حدثت لك حادثة.

ارتمى حسام على أقرب أريكة وهو يغمغم:

- كنت أحاول إيجاد طريقة لإجراء العملية في الوقت المناسب.

سألته في لهفة وقلق :

- ماذا فعلت ؟

غمغم وهو يلقي رأسه على مسند الأريكة في إرهاق:

- لا شيء.

انعقد حاجباها في حيرة، صمت حسام بضع ثواني ثم استطرد:

- ذهبت إلى مركز طبي خاص لأعرض على مديرها القيام بإجراء العملية على أن أسدد تكاليفها على أقساط.

سألت في قلق بالغ :

- وماذا حدث؟

ابتسم في مرارة قائلًا :

طردني من مكتبه ثم أمر أفراد أمنه بتسليمي لقسم الشرطة بعد أن دفعني للغضب والثورة عليه بسبب سوء معاملته لي.

دمعت عيناها وهي تقول غاضبة :

- ما كان يجب عليك الذهاب إلى مستشفى خاص؛ إنهم هناك لا يهمهم سوى المال فقط.

تنهد حسام وهو يغمغم :

- في الحقيقة لقد حداني الأمل في أن أجد الرحمة في قلوب الناس لكن يبدو أنني غارق في الأحلام الوردية.

سألته بصوت مختنق:

- وماذا حدث في قسم الشرطة؟

تم عمل محضر تعهدت من خلاله عدم الذهاب إلى هذا المستشفى بعد ذلك.

ابتسمت نادية في حزن عميق و قالت:

- أنت مغرم بتحميل نفسك ما لا تحتمله.

غمغم حسام في صوت خفيض وهو مغمض العينين كأنما يسحبه النوم إلى سلطانه :

- ألستِ أنتِ كذلك أيضًا؟

كادت تجيبه لكنها تفاجأت به يهوي إلى أعماق النوم السحيقة في استسلام.

****

توقفت سيارة رمادية صغيرة أمام بناية قديمة مؤلفة من ثلاثة طوابق تقبع في منطقة نائية في حي المقطم، ترجل منها حسام وصديقه أيمن من سيارة الأخير، ثم تطلعا إلى المبنى المنفرد في حنين أعاد إليهم ذكريات الماضي

الجميلة و العنيفة، لم يستسلما طويلًا لحنين الذكريات المتدفق في رؤسهم كالسيل، دلفا إلى الداخل يتأملان التغيرات التي طرأت عليه في انبهار، لم يستطع حسام منع المرارة التي ملأت حلقه عندما تذكر تدريباته الشاقة، والتي كان يجريها كل يوم بلا تأفف من أجل أن يصبح يومًا ما بطلًا للعالم، نفض الفكرة عن نفسه في عنف وهما يتأملان المكان عن كثب، كانت قد طرأت تغيرات عديدة على المكان بكامله، ليس في تصميمه وتطويره فقط، بل لأنه جمع إلى رياضة الملاكمة عدة رياضات أخرى، كرياضة الكيك بوكس، الكاراتيه، والجود، و لكل رياضة من هذه الرياضات صالة مخصصة متطورة.

- هل أعجبكم النادي بعدما تم تجديده؟

التفتا إلى حيث يقف الكابتن شوقي عاقدًا ساعديه أمام صدره، بقامته المتوسطة، وملامحه العجوز المألوف لهم، تأمل حسام مدربه وهو يبتسم في سعادة، عينان سوداوتان ضيقتان، شاب أغلب رأسه ولم يتبقى إلا القليل من شعيرات عنيدة في فوديه تأبى ترك الليل لترزح تحت ضوء النهار، ما يزال على عهده به، متماسك البنية بالنسبة لعمره الذي تجاوز الستين بخمس سنوات أو يزيد.

احتضنه حسام في سعادة، ربت مدربه على كتفه في قوة وهو يتأمله بدوره، ما زال يتذكر تلك الملامح كما لو لم يفترقا إلا أمس، و جسده القوي يؤكد حرصه على ممارسة التمارين بجدية. كرر المدرب مع أيمن ما فعله مع حسام، و كان الود سيد الموقف بالرغم من العتاب الذي أبداه تجاههما، لكن السعادة كانت تطل من كل خلجة من خلجاته، دعاهما مدربهما العجوز إلى مشاهدة التغيرات التي طرأت على المكان كله خلال العام الفائت، قادهما المدرب إلى صالات الملاكمة والتي تشهد مقاتلين أقوياء أثاروا الإعجاب في عيني حسام وأيمن، ثم دلفوا إلى صالة الكيك بوكس في نفس الطابق، ثم عرجوا بعدها إلى الطابق العلوي حيثُ يحتوي على صالات رياضات الكاراتيه والجودو والتايكوندو، كان الإعجاب مطبوعًا بوضوح على وجه حسام وصاحبه، طالعه المدرب في سعادة ثم أردف في فخر:

- لم تريا درة المكان كله بعد.

نظرا إليه في تساؤل واهتمام فأشار إليهما قائلًا:

- اتبعوني إلى الطابق السفلى.

تسائل حسام في حيرة وهو يهبط معه السلالم :

- ألم نرى كل شيء في الأسفل بعد؟

ابتسم مدربه العجوز ابتسامته المزهوة قائلًا:

- أقصد الطابق الخفي القابع في الأسفل «صالة القتال السرية»

بالرغم من عدم فهمهما لتلميحه، إلا أنهما تبعا مدربهما افي استسلام، انحرف المدرب يسارًا في ممر لم ينتبهوا له من قبل، توقفوا أمام دهليز مظلم، ضغط المدرب على زر خفي فأضاء الدهليز بكامله بلون أبيض هادئ، توقفوا في نهاية الدهليز أمام باب حديدي متين، فتحه المدرب بمفتاح خاص ثم ضغط على عدة أزرار فتتابعت لمبات الإضاءة العملاقة في إنارة المكان كله كاشفة عن صالة عملاقة بحجم نصف المبنى تقريبًا، تتوسطها حلبة كبيرة لإقامة المباريات، أقيم حولها المئات من المقاعد التي أعدت لجلوس الجمهور عليها، لم يستطع حسام منع آهة إعجاب وانبهار فلتت بالرغم منه، أيمن أيضا صاح في افتتان غير مصدق عيناه، كل ذلك زاد من ثقة المدرب بنفسه وإعجابه بحسن تفكيره ورجاحة عقله، فهو صاحب الفكرة ورائدها بل ومؤسسها أيضًا. فاق المدرب من أفكاره حيث وجد أيمن وحسام ما زالا يتطلعان إلى المكان في اهتمام واضح، دعاهما إلى النزول لأسفل عبر درجات السلم السبعة ليشاهدا المكان عن قرب، أردف المدرب شوقي في فخر:

- هذه الصالة أعدت في الخفاء لتكون بعيدة عن أعين رجال الأمن والمباحث والفضولين والمتلصصين؛ فهي غير مرخصة لنشاطها غير الشرعي، وقد كلفنا بنائها أموالًا طائلة، وهي محكمة الإغلاق للغاية حتى لا ينفذ منها أصوات المشجعين المتحمسين إلى الخارج، و زودناها بنظام تهوية وتكيف مركزي، ووسائل رفاهية كثيرة لتكون درة المبنى كله المخفية عن العيون.

غمغم أيمن في إعجاب:

- من ينظر إلى المبنى القديم من الخارج لا يتخيل أبدًا وجود كل هذه الإمكانيات في الداخل.

تسائل حسام في اهتمام و فضول:

هل أقيمت مباريات عليها أم لا زلتم في طور الإعداد ؟

قال المدرب :

أقيمت مباريات ودية فقط، وستقام بعد شهرين من الآن مباريات قتالية على مستوى عالٍ.

غمغم حسام في جهشة لم تفارقه منذ دلف إلى المكان:

- أبلغني بعض أصدقائي بهذا لكني لم أستطع تصديقه.

صار المدرب كالطاوس في زهوه وهو يقول:

- بل صدق، ستقام مباريات يشترك فيها لاعبان من أماكن شتى، مثل روسيا وأوكرانيا وأمريكا وأوروبا وأفريقيا، كل هذا سيكون في حذر تام حتى لا نلفت أجهزة الأمن إلينا.

كان من العسير عليه أن يصدق ما يسمعه من مدربه السابق، لكنه نزع نفسه من بين كلاليب ذهوله و توجهوا إلى مكتب المدرب الذي كان فخمًا لا يخلوا من وسائل الراحة، دعاهم للجلوس على المقاعد الأنيقة، ثم سألهم :

- ما الذي أتى بكم اليوم؟ ولا تقولا أنكما اشتقتما إلي؛ فأنا أكره الكذب

تبادل حسام وأيمن نظرة سريعة ثم راح يحكى له عن مرض ابنه وخطورة التأخير في عملية زرع الكبد على حياته، والمبلغ المطلوب لإجرائها حتى لا يضطر إلى الركون مرغما إلى قائمة الإنتظار، والتي غالبًا لا تستطيع استيفاء الحالات جميعها فيموت العشرات من المرضى كل عام.

استمع له الكابتن شوقي في تأثر واضح ثم تسائل في نبرة آسفة:

- لكني لا أملك هذا المبلغ الضخم يا حسام، أنت تعرف أنني لن أتأخر عنك لو كان بين يدي هذا المبلغ بالتأكيد.

ثم أشار بكلتا يديه إلى المكان قائلًا:

- هذا المكان كلفني تقريبًا كل ما جمعته في حياتي، ليس بمفردي بالطبع من تحمل تكاليف تطوير المكان، ولكن كان ينبغي أن أبدأ أولًا لأستطيع إقناع رجال الأعمال بالمشاركة بأموالهم.

رد حسام في سرعة ليدفع عن مدربه سوء الظن:

- أعلم جيدًا أنك لن تتأخر عن مساعدتي أبدًا، لكني لم آتي إلى هنا لأستعير منك مالًا

تسائل المدرب في حيرة:

- لماذا جئت إذًا؟!

قال حسام في حزم :

- أريد أن أخوض قتالًا مقابل المبلغ الذي احتاجه لإجراء العملية في حالة ربحت المباراة.
- هتف شوقي معترضا :
- لكنك غير مستعد لقتال كهذا؛ فأنت لم تخض قتالًا منذ سنوات عديدة!

أجابه حسام في سرعة:

- أنا لم أترك التدريب في غرفتي يومًا واحدًا منذ تركت مباريات الملاكمة في هذا النادي، وسأبدأ التدريب معك منذ هذه اللحظة إذا شئت.

- الأمر ليس بهذه السهولة يا حسام، إنهم هنا وحوش حقيقية.
قال حسام في يأس :
- لكني أحتاج إلى المال في أسرع وقت.
هز المدرب رأسه نفيًا وهو يقول:
- المشكلة أنك غير مستعد لمثل هذه النزالات القاسية.
قال حسام في تصميم:
- ربما، لكني سأفعل ما في وسعي لأكون مستعدًا لها.
مال المدرب ناحيته قائلًا في عطف أبوي:
- اسمعني جيدًا يا حسام، هذه المباريات ليست للتسلية، وليست حتى كالمباريات التي كنت تلعبها في الماضي على الرغم من قوتها، هذه مباريات من نوع آخر، مباريات قد تخسر فيها حياتك إذا لم تكن مستعدا لها.
قال حسام في إصرار:
- ليس أمامي حلًا بديلًا
هتف المدرب في عصبية:
- إنك بهذا تقتل نفسك، أفق قبل فوات الأوان.
هتف حسام :
- سوف أخسر ابني إن لم أقاتل.
- ستكون إذًا مشيئة الله ولن تستطيع منعها. هز حسام رأسه في عناد :
- لن أدعه يموت دون أن أبذل أقصى جهدي.
بدا العناد جليًا في وجه حسام، وهو يعرفه جيدًا، لن يستطيع أن يثنيه عن قراره مهما حاول، لذا زفر بقوة ثم غادر المكان وهو يردد:
- ستقتل نفسك.
التقت عينا حسام بعيني أيمن الذي لم يتدخل طوال الحديث مطلقًا لعلمه بعدم فائدة ذلك، يدرك جيدا أن صديقه يقدم على ما لا يستطيع مواجهته، خاصة في عمره الذي اقترب من الأربعين، لكنه أيضًا لن يستطيع منعه و الحيلولة دون ما يريد.

****

عاد حسام إلى بيته بعد لقائه بمدربه السابق الذي تبنى فكرة «صالة القتال السرية»، كان حسام يعلم أنه يورد نفسه مورد التهلكة باشتراكه في قتال كهذا، لكن الأمر عنده لا يتعلق بالمجد أو المتعة، وإنما بالحصول على المال الضروري لإجراء العملية قبل فوات الوقت المحدد. قرر حسام عدم

الاعتماد على الملاكمة وحدها في قتاله القادم لتحقيق الفوز، بل لا بد من الإلمام برياضتي الكيك بوكس والكاراتيه أيضًا ليستطيع استعمال يديه مع قدميه بكفائة، الأمر يبدو مخيفًا ونسبة الفوز تكاد تكون معدومة، لكنه تجاهل الأمر و ألقى خوفه خلف ظهره، خلع قميصه لتظهر عضلاته المفتولة، اتجه إلى كيس الملاكمة ليكيل له اللكمة تلو اللكمة بمهارة لم ينسها منذ كان محترفًا للعبة، استمر بالتدريب لمدة ساعة على الأقل حتى أصابه الإنهاك لكنه لم يتوقف بالرغم من ذلك، بلغ صوت لكماته مسامع أسرته الذين كانوا يشعرون بدهشة من جراء ممارسته للتمارين الرياضية في تلك الظروف السيئة، لكن أحد منهم لم يتدخل أو يبدي اعتراضًا لعلمه مدى سوء حالته النفسية، حيثُ أعزوا ذلك كمحاولة منه لتفريغ غضبه المكبوت، استمر نصف ساعة أخرى حتى كاد يسقط من فرط الإعياء، ثم خرج بعدها من غرفته مغمورًا بالعرق، تلاحقه نظرات الأسرة في استغراب ودهشة، ثم اغتسل ليزيل من جسده أثر التوتر والعرق، و اتجه إلى غرفة نومه لينام نومًا عميقًا استعدادًا للمعترك المائج المقبل عليه، يدرك أنه لا بد من السيطرة على انفعالاته ليتمكن من هزيمة اليأس الذي بدأ يزحف على قلبه في عناد و سطوة، ومن السيطرة على الضعف الذي بدأ يسيطر على جسده في استماتة.

****

اسيقظ حسام في الصباح الباكر بعد نوم عميق كان يحتاجه ليتخلص من الإرهاق النفسي والجسدي، حيث لم يكن قد حظي بنوم كافٍ منذ بدأت تلك المأساة فصولها. ذهب إلى صالة القتال حيث بدأ بتمارين التسخين والإحماء قبل الشروع في التمارين الأساسية، استمر في تدريباته حتى سمع صوتًا من خلفه يقول في صرامة:

- إنك تأخذ الأمر بجدية بالغة.

التفت إليه حسام وهو يبتسم ابتسامة واسعة:

- بالتأكيد، فالأمر لا يحتمل المزاح يا كابتن شوقي.

نظر إليه في غير رضا قائلًا في لهجة جافة:

- افعل ما يحلو لك ولكن تذكر أنني حذرتك.

رد حسام في لا مبالاة:

- لن يحدث أسوأ مما حدث.

هتف المدرب في احتداد:

- بل سيحدث، و لن تكتفي بموت ابنك بل ستتسبب في موتك أيضًا.

اكفهر وجه حسام في غضب عندما ذكر المدرب موت ابنه وكأنه أمر حتمي لا مناص منه، لكنه فضل الصمت بالرغم من ألمه العميق، ربما لمكانة المدرب في نفسه و ربما ليتجنب الدخول في نقاش عقيم لن يجدي نفعًا، سيطر على غضبه بصعوبة قائلًا :

- أنا في أتم الاستعداد يا كابتن شوقي، متى نبدأ؟

انعقد حاجبا الكابتن في سخط، ثم هتف في حدة:

- الآن.

لساعتين كاملتين أشرف المدرب شوقي على تدريب حسام وتكليفه بتمارين قاسية لا تتناسب مع سنه، إذا أنه أراد من وراء ذلك أن يشعره بالعجز والضعف وأنه غير مناسب للقتال، وكم كانت دهشته عظيمة لصبر حسام وقوة تحمله، كان حسام يجرك أنه يهدف لإظهاره بمظهر العاجز، لكنه استغل ذلك لصالحه أفضل استغلال؛ فالوقت ضيق للغاية ولن يكفيه شهرًا واحدًا ليكون جاهزًا. توافد المقاتلين إلى المكان عند الساعة الثامنة، حدجه بعضهم في دهشة، وبعضهم في سخرية، وآخرون جمعوا بين الدهشة والسخرية في آن واحد، وهم يتسائلون فيما بينهم عن ما يفعله هذا الكهل في هذا المكان الذي يتفجر حيوية و طاقة؟! أكمل حسام تدريباته بالرغم من كل ما سمعه وقد أهمل وجودهم تمامًا حتى سقط في النهاية.

- ألم أقل لك؟

قالها المدرب في تشف ممزوج بالشفقة، لهث حسام في عنف وهو يفترش الأرض من الإنهاك، ظل على حالته وهو مستلقي على الأرض لخمس دقائق كاملة، ثم وقف بعدها على قدميه وهو يجيب مبتسمًا في إرهاق:

- إنها البداية فقط يا معلمي العزيز.

تمعر وجه المدرب وهو يقول:

- ألم تسمع ما قاله الشباب عنك عندما رأوك تتدرب؟

قال في بساطة:

- نعم ولا يمكنني لومهم على ذلك؛ لأنهم ليسوا في مكاني ليصدروا حكمًا علي، ولو كنت في مكانهم لربما فعلت المثل.

ازداد غيظ المدرب من هدوء أعصابه وسيطرته على انفعالاته، لم يكن مصدر سخطه على حسام إلا إشفاقًا وحبًا؛ إنه لا يدري أنه سيواجه ذئابًا بشرية لا ترحم، الشباب ضد الكهولة، القوة ضد الضعف، وبدون حسابات معقدة أو حتى بسيطة، القوة لها اليد العليا في هذه المباريات الدامية، وحسام لا يريد أن يستوعب هذا المنطق، وربما يهرب من الإعتراف به، قطع حسام حبل أفكاره قائلًا في تهذيب :

- هل أستطيع الإنصراف الآن؟
- نعم، استرح على قدر استطاعتك.

أجابه حسام في حزم:

- لا وقت للراحة ما دمت أريد الفوز.

قال المدرب في غيظ:

- حسنًا أيها المغرور، استعد لمواجهة أسوأ أيام حياتك إذًا.

انصرف حسام في سرعة قبل أن تنشب بينهما معركة.

****

انغلق الطوق الأمني في إحكام حول مبنى قديم مكون من أربعة طوابق يقبع في شارع جانبي من شوارع مصر القديمة، مبنى يستخدم لأعمال الدعارة وتعاطي المخدرات، أحاطت قوات الأمن به إحاطة السوار بالمعصم، واتخذ اثنان من القناصة مواقعهم على مبنى مقابل تحسبًا لأي تدخل غير متوقع، كان الجميع في انتظار أوامر العقيد (عصام الجلاد) الذي يرأس قوات الأمن في هذه الحملة، يعلم الجميع من هو العقيد عصام و يرهبونه رهبة شديدة؛ فهو شخص صعب المراس، شديد الصرامة، يلتزم أشد الالتزام بالقوانين، يتمتع بجسد قوي وشارب كثيف منحاه مهابة زائدة، و حصل على ترقية استثنائية لإخلاصه وشجاعته و تفانيه في عمله، و يتهمه البعض بالأنانية المفرطة؛ حيث أن كل ما يهمه هو الحصول على المجد والشرف الشخصي. انتظر الجميع إشارته وهو يراقب المكان بعين خبيرة، التقط نفسًا عميقًا ملأ به صدره العريض ثم هتف في صرامة آمرة:

- هجوم.

انطلقت قوات الأمن لتخترق المكان في سرعة ومهارة مستغلين عامل المفاجأة، حاول بعض المجرمون الفرار من المكان أو حتى مواجهة الشرطة بالأسلحة التي يحملونها، إلا أنهم لم يتمكنوا حتى من إخراج أسلحتهم فضلًا عن استخدامها؛ بسبب عامل المفاجأة مع سرعة الهجوم وقوته، دلت سرعة السيطرة في وقت قياسي على مدى براعة الشرطة وحنكتهم في التعامل مع مثل هذه الأمور، و دل أيضًا على شخصية قائدهم و حسمه الأمور في سرعة وحنكة. انقاد المجرمون لقوات الشرطة في خضوع تام، تابعهم العقيد عصام ببصره قبل أن يبلغ القيادة بالتطورات الأخيرة، كانت المواجهة سريعة وحاسمة، لم تسفر عن خسائر في الأرواح من الطرفين، وهذا بالنسبة له هو النصر الحقيقي، علت وجهه ابتسامة ارتياح لم تدم أكثر من ثانيتين قبل أن تختفي في سرعة كأنما يخشى أن

يراه أحد مبتسما، كان يحافظ دائمًا على وجه صارم ليحدث الرهبة في رجاله قبل أعدائه، استقل سيارته ثم أمر قواته بالتحرك؛ تحرك الجميع في سرعة و نظام كأنهم خلية من النحل تتبع ملكتهم الصارمة.

****

ساعتان من التدريب الشاق العنيف تحملها حسام في صبر حتى انقطعت أنفاسه من الإجهاد العنيف، استلقى على ظهره وصدره يعلو ويهبط في عنف، وقف المدرب عند رأسه ينظر إليه في قلق، راقبه وهو يسمع صوت أنفاسه في وضوح ثم سأله:

- أما زلت تريد الاستمرار يا حسام؟

هتف حسام بصوت متقطع :

- ما الذي تغير أيها المدرب؟

أجابه المدرب في ضيق:

- إنك لا تنزل نفسك منزلتها، أنا قد رحمتك بتركك ترتاح الآن، لكن من ستقاتلهم لن يعطوك هذه الفرصة أبدًا

لم ينكر حسام أيًا مما قيل، والدليل على هذا هيئته و هو مستلق على الأرض غير قادر على الحركة، قال مدربه في إشفاق:

- قم واذهب إلى بيتك، خذ حمامًا ساخنًا ثم استلق على فراشك و فكر جيدًا فيما قلته لك؛ فالحياة لا ترحم أحدًا.

فوجئ المدرب عندما نهض حسام في نشاط قائلًا:

- إنك لا تتخيل كم أنعشتني هذه التمارين القاسية، فقد شعرتُ بأنني عدت عشر سنوات إلى الوراء، تدب في جسدي حيوية لم أشعر بها منذ فترة طويلة، ولكن معك حق، ينبغي أن آخذ راحة للاستعداد ليوم الغد، إلى اللقاء يا مدربي العزيز.

****

عاد المقدم عصام إلى بيته مرهقًا بعد العملية الأخيرة، حيث كان يجهز لها منذ ليلة أمس دون أن يذق النوم، تلقاه ابنه الصغير يسأله في لهفة:

- هل أحضرت الحلوى التي و عدتني بها؟

صاح عصام ساخطًا:

- يا إلهي لقد نسيت، سامحني يا لؤي.

قال الطفل في صوت باكٍ:

- أنت دائمًا تنسى ما تعدني بإحضاره

ضمه إلى صدره في حنان لا يتناسب مع صرامته قائلًا:

- آسف يا لؤى لن يتكرر هذا الأمر بعد ذلك أبدًا، هذا وعد.

قاطعه صوت زوجته نسرين تسأله في عتاب:

- هل أنت متأكد أنه لن يتكرر مرة أخرى؟

ابتسم عصام في إرهاق:

- ستتحسن الأمور قريبًا يا حبيبتي، هذا وعد، كل ما أريده هو حمام دافئ وفراش وثير ولا توقظيني حتى الصباح

تنهددت نسرين قائلة:

- رجعت ريما لعادتها القديمة، تأتي دائمًا مرهقًا من العمل حتى لا تكاد تستطيع الجلوس معنا خمس دقائق، ثم تطلب الحمام الدافئ والنوم العميق كأنك تسكن في فندق مع أغراب.

ابتسم محاولًا تجنب عراك متوقع:

- هل من الممكن إرجاء هذه المحادثة حتى الغد!

مطت شفتيها علامة عدم الرضا قبل أن تذهب لتجهيز الحمام، تابعها ببصره في ضيق، كان يعلم أنه مقصر ولا شك، فقال في لهجة المعترف وهو يقترب منها:

- أنتِ محقة يا حبيبتي، سأبذل قصارى جهدي لأصلح ما أفسدت.

طبع قبلة على جبينها ثم غادر سريعًا قبل الهجوم الضاري المتوقع، كان يبذل قصارى جهده في خدمة وطنه، لكنه على العكس من ذلك كان مقصر في حق أسرته كثيرًا، وعليه أن يوازن بين واجبه تجاه وطنه وتجاه أسرته، ولن يكون ذلك سهلًا أبدًا. خلع ملابسه في إرهاق، فتح المسحاح على جسده المكدود العاري، أنسته متعة نزول الماء البارد على جسده همومه وإرهاقه، أغمض عينيه في استسلام وشلال الماء البارد يسقط عليه في قوة.

****

عاد حسام إلى منزله يكاد الإرهاق يقتله، لم يعد ذلك الشاب الممتلئ شبابًا وقوة، كان يستطيع أن يبذل أضعاف ما بذله اليوم من مجهود في السابق، لن ينسى ما كان يتهامس به المقاتلون أثناء تدربه :

- هيا أيها العجوز ابذل ما تستطيع، أم أن عظام جسدك قد شاخت.

لم يحدث من قبل أن سخر منه أحد، لكنه تغافل، هي الأيام، يوم لك ويوم عليك. ألقى جسده المنهك على أريكة كبيرة، شعر وكأن آلام جسده ستبدأ بالهجوم عليه لتفترسه افتراسًا، مدد جسده ثم بغتة، غرق في نوم عميق حتى النخاع، لم يدر حسام كم من الوقت ظل نائمًا، استيقظ دون أن يفتح عينيه ليستمع إلى زوجته ووالديه يتكلمون في صوت خافض لا يخلو من

الحدة عن القتال القادم الذي ينوي حسام التورط فيه، كانوا يتناقشون في عصبية ويحاولون إيجاد مخرج قبل أن تتطور الأمور إلى درجة خطيرة.
قال حسام وهو يفرك عينيه من أثر النوم:

- أنتم فقط تبالغون في وصف الأمر.

ابتدره والده قائلًا في رفق:

- نحن نخشى عليك يا بني من عواقب هذا القتال، إنها مباريات تتسم بالشراسة والوحشية، مباريات تديرها الشياطين.

لا يدري حسام كيف عرفوا بأمر تلك المبارة التي يزمع خوضها، ربما يكون مدربه أو صديقه، لكنه تجاهل تلك النقطة و قال:

- لقد درست الموضوع بعناية يا والدي، اطمئن.

احتجّت زوجته صائحة:

- درست ماذا يا حسام! إنه قتال مصيري، من يقاتل في مباراة كهذه لا يرحم، إما الفوز أو الخسارة، ولا أحد يحب الخسارة.

شجعها عدم رده، فاستطردت في صوت باك:

- أعلم أنك تفعل ذلك من أجل يحيى، لكنك لن تساعده بقتالك إذا ما أصابك مكروه، بل ستزيد الوضع سوءًا بأكثر مما هو عليه، ينبغي أن نتكاتف سويًا للخروج من هذا المأزق.

أردفت أمه في حنان:

- استمع إلى كلام زوجتك يا حسام، فهذا هو عين العقل.

رسم حسام على وجهه قناعًا صارمًا وهو يقول :

- استمعوا إلي أنتم جيدًا، لقد فكرت طويلًا في كل الخيارات المتاحة أمامنا، لكن للأسف لا يوجد حل واحد أستطيع الاعتماد عليه؛ فكلها لا تجدي نفعًا، أخبرني الطبيب أنه لم يعد أمامي سوى أقل من شهر واحد لأوفر المال الكافي لإجراء العملية، ولن يستطيع ابني الصمود أكثر من تلك المدة على الرغم مما يلقاه من رعاية طبية الآن، لا يوجد سبيل لتوفير هذا المال في هذه المدة المحدودة غيرالقتال، قتال واحد فقط أحصل بعده على ما أحتاجه وأعدكم أنني لن أمس بأذى.

صاحت زوجته في يأس:

- أنت تكذب علينا يا حسام، هذا القتال لن تخرج منه سليمًا معافى أبدا.

بكت والدة حسام في حزن وخوف على ابنها الوحيد، كأنها تستشعر خطرًا مبهمًا يهدده، انعقد حاجبا والد حسام دون أن يتكلم، ظهر على وجه نادية علامات الغضب الشديد، فاستطردت في صرامة شديدة لا تتناسب مع طبيعتها الرقيقة الهادئة:

- لا أحد يستطيع أن يصف ما أشعر به منذ أصيب يحيى؛ فأنا أم والأم أكثر من تتأثر إذا أصيب أحد أولادها بالأذى، لكني كنت أحمل نفسي على الصبر طمعًا في رحمة الله، و كنت أرجو أن نتكاتف سويًا حتى نتغلب على محنتنا هذه، لكنك منذ أن وقعنا في هذه المحنة تبتعد عني شيئًا فشيئًا، صرت أكثر غموضًا، تتخذ القرارات وحدك دون أن تستشيرنا بالرغم من أنها تمسنا جميعًا، وهذه أنانية لا أقبلها ولن أقبلها أبدًا، ثم هل تظن أنك ستحل المشكلة بخوضك قتالا غير عادل؟! أنت لم تخض قتالًا منذ سبع سنوات، هل تظن أنك ستنتصر في قتال كهذا، هل تظنهم يتركوك تربح كم من الأموال ثم يودعوك مبتسمين؟ أنت تحلم، لن أتركك تخوض هذا القتال، لن أسمح بخسارتك أبدًا، ماذا أفعل بدونك في هذه الحياة.

أنهت حديثها ثم أخذت تبكي في حرارة، جاهد حسام ليحبس دموعه من أن تفر من عينيه، جلس بجوارها قائلًا في حنان:

- أنا لم أتخذ قرارًا فرديًا لأني شخص أناني أحب الاستئثار بالرأي، لكني خشيت أن لا تتحملي قرار خوضي قتال كهذا، كنت أعلم أنكِ ستعارضينني بشدة، لكن صدقيني أنا أفعل ما أفعله من أجل أسرتنا وسعادتنا، من أجل يحيى، من أجل أن تعود بسمته على وجهه لتنير حياتنا من جديد.

تمسكت بكتفه قائلة في رجاء:

- عدني أنك لن تقاتل يا حسام

ازدرد لعابه في صعوبة، سيضطر للكذب عليها ليريحها، لقد اتخذ قراره بالقتال ولن يعدل عن رأيه أبدًا، إنه مضطر، والمضطر دائمًا وأبدًا يركب الصعب، ويا لها من صعوبة، قال متظاهرًا بالصدق:

- نعم يا حبيبتي، أعدك

تطلعت إلى عينيه في شك، احتضنها ليهرب من عينيها؛ يعلم أنها ستفضح كذبه، الكذب شيء بشع، و لكن أبشع منه اليأس والاستسلام.

****

انطلق حسام وأيمن يركضان في الصباح الباكر في محاولة منهم لإرجاع لياقتهم البدنية كما كانت منذ عهد بعيد، استمرا نصف ساعة كاملة حتى انقطعت أنفاس الأخير فاضطر للتوقف، توقف حسام بدوره وهو يخاطب صديقه متهكما :

- يبدو أنني لست العجوز الوحيد هنا.

صمت أيمن قليلًا حتى استرد أنفاسه، ثم قال :

- أنا انقطعت عن الرياضة منذ تركتها، ثم إنني أدخن بشراهة، حتى أننى مندهش بسبب قدرتي على التحمل كل هذا الوقت.

وافقه حسام بإيماءة من رأسه قائلًا:

- التدخين عادة سيئة بالفعل وترك الرياضة عادة أسوأ.

جلس حسام بجوار صديقه على رصيف الطريق حتى يسترد أنفاسه كليًا، قال أيمن في خجل:

- يبدو أننى جئت لإبطائك وليس العكس.

ابتسم حسام قائلًا:

- أنت لا تتصور كم سعادتي عندما أتيت لتتدرب معي اليوم، لقد أمدتني بقوة كبيرة للمضي قدمًا في تحقيق ما أريد، ثم إن مشاركتك تذكرني بالأيام الخوالي.

قال أيمن وهو يبتسم في سعادة:

- أرجو أن أكون عونًا وسندًا لك، لا حجر عسرة في طريقك.

ربت حسام على كتفه في قوة قائلًا:

- أنت بالتأكيد قوة لا يستهان بها.

ثم نهض وهو يصيح:

- هيا أيها العجوز، فلقد استنفذنا الكثير من الوقت بالفعل.

انطلقا مرة أخرى وفي ذهنهما أمرًا واحدًا، الفوز، مهما كان الثمن.

****

دلف العقيد عصام إلى مكتبه فى إدارة المباحث في همة ونشاط معتادان، طلب فنجانًا من القهوة كما هي عادته كل صباح، دخل مساعده هاني بعد استدعائه ثم حياه في احترام، سأله عصام في اهتمام :

- هل من جديد؟

ابتسم النقيب هاني قائلًا:

- لا يوجد يوم دون جديد يا سيادة المقدم.

سأله عصام في سخرية:

- هل أصبحت فيلسوفًا فجأة أيها الرائد؟

تنحنح الرائد في حرج:

- لا أحب الفلسفة يا سيادة العقيد، لكني أقصد أن كل يوم يأتي بقضايا جديدة.
- مثل ماذا؟
- قضايا اغتصاب، قتل، دعارة، مخدرات، تجارة أعضاء، و...

قاطعه عصام بإشارة من يده:

- أريد أن أشرب قهوتي من غير انسداد نفس.

أنهى العقيد قهوته ثم تراجع بظهره إلى الوراء، حك رأسه بإصبعه قائلًا في دهشة مستغربة:

- لا أدري كيف تتزايد أعداد المجرمين بهذا الشكل المفرط، إننا نبذل قصارى جهدنا للقضاء عليهم أو حتى للتصدي لهم، ومع هذا أشعر أنهم ينتشرون في كل مكان كأنهم يأجوج ومأجوج.

ابتسم النقيب لطرافة التشبيه، يعلم أن العقيد على حق، فكل يوم تزداد الحوادث بشكل هيستيري، لقد أصبحوا مجموعات منظمة من العصابات يديرون العالم السفلي، بل أصبح لبعضهم تخصصات، فذاك متخصص لسرقة البنوك، وهذا لتجارة الأعضاء، وغيرها من الأنشطة الإجرامية التي... قاطع العقيد أفكاره:

- لا بد من التصدي لهم بمنتهى الشراسة والقسوة، الضعف يغري على الظلم والعدوان، لا بد أن نجعل من كل مجرم عبرة.
- نعم يا سيادة العقيد هذا صحيح، ولكن للأسف بعضهم يحتمي بالقانون لعدم وجود أدلة كافية.

مط عصام شفتية في حنق:

- القانون له ثغراته، و يستطيع من يجندوه من المحامين الذين باعوا ضمائرهم للشيطان أن ينفذوا من خلالها لحماية موكلهم.

ثم فتح الملف الذي أمامه وبدأ يقرأ في صوت مسموع:

- سقوط شبكة تجارة أعضاء بشرية مكونة من عشرين شخصًا بينهم أطباء وممرضين وعمال وسماسرة، حيث يقوم السماسرة بإقناع الضحايا بالتنازل عن أعضائهم مقابل مبلغ زهيد من المال لا يتجاوز ثلاثين ألف جنيه، في حين يتقاضى الطبيب ومساعده أجره بالدولار، ويتم بيع الأعضاء للأثرياء من...

بتر عبارته وألقى الملف أمامه في حنق، كان يشعر بغضب شديد كلما شعر بالعجز تجاه أمر ما، يحلم دائما بالمدينة الفاضلة التي يحكمها القانون بكل حسم وصرامة، القانون فقط ولا شيء فوقه، زفر بقوة قبل أن يقوم من مقعده قائلًا:

- سأذهب لأتابع هذه القضية بنفسي، أبلغني بكل جديد.

وانصرف من المكان كالإعصار.

****

استيقظت شيماء وهي تتململ في فراشها فطالعها زوجها على بصيص الضوء الذي يتسلل من الباب الموارب، جالسًا على حافة الفراش ساهمًا

في صمت، اعتدلت في قلق وهي تضغط على زر المصباح الكهربائي المجاور لفراشها، انتبه أيمن لاستيقاظ زوجته التي سألته في قلق وحيرة عما به، تردد أيمن قليلًا ثم أجابها في صوت خافض:

- لا شيء يا حبيبتي، لا شيء.

التصقت به في دلال، وضعت يدها على كتفه قائلة:

- لا تخفي علي أمرًا يهمك يا حبيبي.

قال أيمن:

- يشغلني كثيرًا أمر حسام.

سألته في حيرة:

- ماذا به؟

قال في شيء من اليأس:

- قرر حسام أن يخوض قتالًا قد يكون خطرًا على حياته للحصول على مال لإجراء عملية زراعة الكبد لابنه.

سألته زوجته في دهشة :

- وهل ستتركه يقتل نفسه! إنه بهذا يسعى وراء سراب.

ترددت العبارة الأخيرة في رأسه كثيرًا، إنه بالفعل يسعى وراء سراب، لن يحصل من ورائه على شيء غير حتفه، التفت لزوجته يسألها في مرارة:

- وما الذي بيدي لأفعله؟

قالت في حزم:

- انتزعه من أوهامه، فما يسعى ورائه مجرد وهم، سراب.

بدأ الحزم يتطرق إليه شيئًا فشيئًا فقال:

- معك حق، لن أقف مكتوف اليدين وأنا أرى صديقي يغرق دون طوق نجاة.

ربتت زوجته على كتفه في حنان ثم عادت إلى فراشها تدثر بالغطاء لتحمي نفسها من لسعة البرد، التفتت إلى الساعة التي تشير إلى الثانية صباحًا قبل أن تسأله مشفقة:

- ألن تنم قليلًا؟ فيبدو أنك لم تنم طيلة الليل.

استسلم لها وهو يفكر في ما قد تأتي به الأيام، لصديقه.

****

غرق حسام في نوم عميق للغاية، بغتة، وجد نفسه في مكان واسع ليس له حدود، أرضه سوداء قاحلة، شمسه ضخمة حمراء قانية، تلفت حوله في ذعر وتسائل في خوف:

- ما الذي أحضره إلى هذا القفر الأجرد الموحش؟

قبل أن يعثر على إجابة، برز ابنه فجأة من العدم، كان يتلوى من الألم ويبكي هاتفًا :

- أبي، لا تتركني يا أبي.

احتقن وجهه في عنف وهو يرى ابنه ملقى أمامه يتألم بشدة، أراد حسام التحرك تجاهه ليضمه إليه في حنان، لم تطاوعه قدميه كأن قوة خفية تحول بينه وبين ولده، حاول مرة أخرى لكنه لم يتحرك قيد أنملة، شعر بالعجز يتغلغل في خلاياه حتى الجذور، ما أسوأ الشعور بالعجز!

كانت صورة يحيى تخفت شيئًا فشيئًا من خلال دموعه الكثيفة، وصوت بكاؤه يبتعد ويبتعد حتى اختفى تمامًا.

اسيقظ حسام صارخًا باسم ابنه في لوعة، اغرورقت عيناه بالدموع وشعور عجيب بالخدر يسري في جسده، استيقظت زوجته في فزع صائحة:

- ماذا هناك يا حسام؟

تطلعت إلى الفزع البادي على صفحة وجهه، فتمتمت في قلق:

- ربما هو كابوس يا حسام، لا تخف.

هز رأسه نفيًا في حزم:

- لا، ليس كابوس يا نادية.

ثم أردف في حزن:

- يحيى يحتاج إلي بشدة.

سألته في لهفة بالغة:

- هل رأيته؟
- نعم، كان يتألم بشدة، ناداني لكني لم أستطع مساعدته.

عضت شفتاها في مرارة وحزن قائلة:

- إنه مجرد كابوس.

أدرك محاولتها التخفيف عنه لكنه قال في مرارة:

- عجزت عن حمايته، أنا أب عاجز.

وضعت رأسه في نحرها وهي تقول مخالطة دموعها:

- لا، أنت فعلت كل ما في وسعك، لا أحد يستطيع اتهامك بالتقصير.

قال في مرارة:

- لا يكفي، إنها رسالة واضحة، إنه يحتاجني وأنا لن أخذله.

سكتت نادية تمامًا، كان الحزن يحطم قلبها والحيرة تشتت عقلها، فقالت في حزم:

- لقد فكرت كثيرًا قبل اتخاذ هذا القرار وأرجوا ألا تعارضني يا حسام.

نظر إليها متسائلًا فاستطردت في حزم:
- سأبيع كليتي لأتدبر المبلغ المطلوب لإجراء العملية.
نظر إليها في غضب لوهلة ثم هتف في سخرية قاسية:
- ألستِ أنتِ من عارضني بشدة حتى لا أخوض تلك المباراة من أجل خطورتها على حياتي، ما الذي تغير الآن إذن؟
أشاحت بوجهها بعيدًا في صمت وخجل، فاستطرد ساخطًا:
- كنت تعاتبينني وتعنفينني لأنني انفرد بالقرار، والآن تفعلي ما كنت تنهينني عنه! إذا كان هناك من سيضحي فهو أنا.
صاحت مدافعة عن نفسها:
- اتخاذك القرار بالقتال في مباراة كهذه يعد انتحارًا وليس تضحية، أما قراري فهو مبني على العقل والمنطق.
تقلصت عضلات وجهه وهو يتسائل في استنكار:
- أي عقل وأي منطق؟!
قالت في إصرار وعناد:
- نعم العقل والمنطق، فأنا سوف أبيع كلية واحدة ولن يكون هناك خطرًا مباشرًا علي حياتي، وأستطيع أن أتدبر المبلغ المطلوب بثمن بيعي لكلية واحدة.
صاح في حدة:
- منطقك مرفوض، فتبرعك بكليتك سينتج عنه أثارًا خطيرة، وقد يسبب فشلًا كلوي.
قالت في إصرار:
- فرصي في النجاة أعلى من فرصك كثيرًا
رد فى صرامة:
- هو يحتاجك بجانبه أكثر مني.
قالت في عناد:
- بل يحتاجك أكثر مني، يحتاج لمن ينفق عليه.
صاح في سخط واضح:
- أنتِ عنيدة للغاية.
قالت وهي تبكي بحرقة:
- من حقي أن أجازف أيضًا من أجل ولدي.
احتضنها بقوة، ملأت وجهه بدموعها المنهمرة، فقال في رقة:
- سامحيني على قسوتي، أعدك أنني لن أخوض تلك المباراة.

تطلعت إليه في شك واضح، فربما كان يخدعها محاولًا كسب الوقت لصالحه، أما بالنسبة إليه فقد كان الإسراع في خوض المباراة أفضل حل بالرغم من خطورة ذلك على حياته، فالأمور صارت تتفاقم للأسوأ، وها هي زوجته تفكر في بيع كليتها، ولو انتظر أكثر من ذلك فلربما أقدمت على تلك الخطوة بالفعل حتى من دون علمه، وهو لن ينتظر حتى يرى مأساة أخرى.

****

ذهب العقيد عصام إلى مكان احتجاز المتهمين بتجارة الأعضاء البشرية، صافح الرائد يوسف الذي بدا على محياه الدهشة، فلم يكن العقيد قد زاره منذ سنوات، سأله الأخير مباشرة:

- سمعت أن أعضاء شبكة الإتجار بالأعضاء محتجزون عندك هنا حتى يقدموا للنيابة، أليس كذلك؟

أجابه الرائد في حذر:

- نعم، إنهم موجودون هنا لمدة أربعة أيام على ذمة التحقيق.

أومأ العقيد برأسه علامة التفهم ثم مال نحو الرائد قائلًا:

- هل تأذن لي بمقابلتهم لسؤالهم عن أشياء محددة؟

ازداد استغراب الرائد كثيرًا لكنه أخفى دهشته مجيبًا:

- بالتأكيد يا سيادة العقيد، ولكن ما الذي تريده منهم؟

عاد العقيد بظهره إلى الخلف وهو يقول في لهجة غامضة:

- لا شيء خطير أيها الرائد، مجرد بضعة أسألة فقط.

تطلع إليه الرائد في صمت و حيرة ثم قال في حماس زائف:

- بالتأكيد، تفضل معي يا سيادة العقيد.

وصلا إلى الزنزانة التي احتجز فيها أفراد العصابة، أمر الرائد أحد رجاله بفتح بابها، وضع العقيد يده على كتف الرائد قائلًا:

- شكرًا لك على ثقتك الغالية، اتركنا وحدنا قليلًا من فضلك.

نقل الرائد عينيه بين العقيد وبين أعضاء العصابة البالغ عددهم خمسة عشر في قلق ثم ذهب دون مناقشة، تطلع العقيد إلى أعضاء الشبكة الإجرامية في برود وقسوة، ثم تقدم إلى الداخل وحده في ثقة يحسد عليها قبل أن يغلق الباب خلفه، كان البغض يطل من عينيه، والقسوة تظهر في ملامحه فتحيلها إلى ملامح ذئب شرس، اقترب من أحدهم ناظرا في عينيه مباشرة قائلًا في برود:

- أظنك الطبيب أليس كذلك؟

أخفض الطبيب عينيه في مذلة وهو يومأ برأسه إيجابًا، خاطبه العقيد في قسوة وكراهية:

- ترى كم جريمة ارتكبتها في حق هذا الشعب من أجل المال؟

لم يجرؤ الطبيب على النطق مع شعوره بالخوف الشديد، جذبه عصام من شعره في قسوة وهو يستطرد:

- كم قتلت من أبناء هذا الشعب وسرقت أهم ما يملكون، أعضاؤهم الحيوية التي وهبها الله لهم، كم أحزنت من الأسر البريئة عندما تتلقى خبر العثور على أحد أولادها مقتولًا بعد سرقة أعضاءه، قبل أن يلقى في أكوام القمامة في صورة لا يتصور أبشع منها؟ إنكم ذئابًا بشرية لا تعرف الرحمة، أنتم القذارة بنتنها وخبثها.

كان قلبه يمتلأ بكراهية لا مثيل لها، اجتمعت كراهيته وغضبه ومقته على شكل قبضة اندفعت لتصدم وجه الطبيب في قسوة فتراجع إلى الخلف كمن دفعته سيارة مسرعة، صرخ الطبيب صرخة هائلة ترجمت ألمه، لم يتوقف عصام عند صرخته فراح يلكمه بعنف أظهر كل ما يعتمل في نفسه من بغض واحتقار، حتى سقط الطبيب أرضًا بلا حراك، لم يكتفي عصام بذلك، بل اتجه إلى الأخرين الذين تكوموا على بعضهم خوفًا من البطش ثم أطلق لنفسه العنان، راح يلكم هذا و يركل ذاك وهو يسبهم سبًا عنيفًا مقذعا، كأنه يفرغ ما في جوفه من الغضب والرغبة في الانتقام، تعالت صرخاتهم بشدة حتى وصلت إلى الرائد الذي عاد مسرعًا إلى غرفة الحجز غير مصدق عينيه، حيث كان العقيد قد تحول إلى آلة للضرب والركل في قسوة جنونية، صاح الرائد بالحراس كي يتدخلوا ليمنعوا العقيد من الاستمرار في ضرب المجرمين؛ حتى لا يؤدي ذلك إلى هلاكهم قبل العرض على النيابة، بذل الحراس جهدًا كبيرًا للسيطرة عليه، خرج بعدها وهو يلهث في عنف ثم جلس على كرسي الحارس الخشبي في إنهاك حقيقي، لم يحدث من قبل أن فقد السيطرة على نفسه، لم يحدث أن انساق وراء مشاعره ونزواته مهما رأى أو سمع، لقد واجه في حياته المهنية مجرمين في غاية الخسة والمهانة، حيث لا يتورع الواحد منهم أن يغتصب عجوزًا مشلولة إذا دعته نفسه لذلك، لكنه لم يفلت زمام نفسه أبدًا، ما الذي حدث هذه المرة إذًا؟ ربما امتلأت نفسه عن آخرها بالكراهية والبغض لكل من يخالف القانون أو يظن نفسه فوقه، أو ربما لم يعد قادرا على رؤية المزيد! غادر عصام المكان دون التطلع إلى ما خلّفه ورائه، تطلع الرائد إلى الأجساد الجريحة المتكومة من أثر ركلات العقيد ولكمته بعينين

مشدوهتين، ثم مط شفتيه محنقا و عاد إلى مكتبه، اقترب مساعده يسأله في حذر:

- هل أكتب تقرير بما حدث يا سيادة الرائد؟

أجابه الرائد في سرعة:

- لا داعي، انسى الموضوع.

قال مساعده في اعتراض:

- لكنهم سيعرضون على النيابة بعد يومين، الإصابات واضحة للغاية و لن تستطيع إخفائها في تلك المدة القصيرة.

أجابه في لهجة حاسمة:

- اكتب في التقرير أنه قد حدث بينهم عراك لتخليص حسابات قديمة.

****

تطلعت نادية إلى وجه ابنها من خلال نافذة غرفة العناية في حزن عميق، كانت تبحث في وجهه عن العزاء لنفسها، جسده الضئيل المتصل به الكثير من الأسلاك والخراطيم الدقيقة يتحد مع سكونه التام ليثير في نفسها الخوف والقلق، سكونه يوحي بالعدم، صمته يذكرها برهبة الموت، هي لا تتحمل هذه الأفكار المرعبة، لا تتحمل رؤيته ساكنًا بعد أن كان يلعب أمامها ليل نهار، لم تكن لتتحمل فكرة أن يسلب الموت ابنها البكر، أول من خرج من رحمها وأول من ألقمته ثديها، أول من ذاقت معه السعادة من أولادها، كانت تمني النفس أن يبلغ مبلغ الرجال، أن تراه زوجًا وأبًا، أن تحمل أولاده وينادونها جدتي. اقتربت منها أمها ثم ربتت على كتف ابنتها في تعاطف، أسندت نادية رأسها إلى كتف أمها كالمستكينة، بغتة رفعت رأسها قائلة :

- أمي، لقد قررت أن أبيع إحدى كليتي.

صعقت الأم هاتفة في ذهول و اعتراض:

- ماذا، هل جننتي؟!

مسحت نادية دموعها بيديها وهي تكرر ما قالته غير آبهة، همت أمها بالاستنكار، لكن ناديةسبقتها قائلة:

- فكرت كثيرًا يا أمي صدقيني لكني فشلت، ثم إن حسام قد قرر خوض مباراة قتالية من أجل الحصول على المال، ومن الممكن أن يودي هذا القتال بحياته.

صاحت أمها فزعة:

- لا، يجب أن تمنعيه يا نادية.

قالت في صوت متهدج:

- لقد وعدني أنه لن يخوضها، لكني لا أثق في وعده هذه المرة.

رددت أمها في حزن شديد:

- لماذا تسعون إلى الانتحار؟ أين إيمانكم بالله!

تخضلت عينا نادية بالدموع دافنة رأسها بين يديها، كأنها تريد أن تختفي عن هذا العالم القاسي الذي لا يرحم، لو كانوا أثرياء لكان يحيى يلعب بينهم الآن في منزلهم كما كان يلعب دائمًا، لكنها الحقيقة المرة، فالفقراء هم من يعانون دائمًا ويضحون دائمًا، تقدم نحوها الطبيب الشاب الذي يتابع حالة يحيى في حرج، تردد قليلًا قبل أن يتنحنح قائلًا:

- آسف لمقاطعتي يا مدام نادية.

مسحت دموعها بيدها في خجل قائلة:

- لا عليك يا دكتور، أخبرني عن حالة يحيى؟

تردد الطبيب الشاب بضع لحظات ثم استجمع شجاعته:

- هذا ما جئت من أجله، حالة يحيى تبدو مستقرة بعض الشيء إلا أنها لن تستمر طويلًا، الكبد قد تضرر بشدة، وعمره الصغير لا يتحمل وضعًا كهذا مدة طويلة.

تسائلت في نبرة مرتعدة:

- وما الحل إذًا؟
- أريد أن أقول أنكم لو أسرعتم في عملية زراعة الكبد سيكون في صالح المريض، أقصد يحيى.

قالت في صوت مرتجف:

- ما الوقت المتاح أمامنا يا دكتور؟
- ربما أسبوعين على الأكثر

لم تحر جوابًا، لكن في أعماقها استقر الجواب بكل وضوح، لا مفر من بيع كليتها، ليست أول أم تفعل ذلك، حتى لو فقدت حياتها في سبيله، المهم أن تخفي عن زوجها هذا الأمر تمامًا.

****

انتظرت نادية خروج زوجها إلى عمله في الصباح كما أخبرها هو بذلك، لم تكن واثقة من عودته إلى عمله مرة أخرى، لكنها لم تحاول أن تصطدم معه في الوقت الحالي؛ فقد كانت تعلم أنه يتعذب مثلها، وربما يجد سلوته في مكان ما، وربما أيضًا وهذا بالغ الخطورة أنه يستعد للمباراة التي كان قد تحدث عنها مذ يومين، لكنه وعدها أنه نحى الفكرة من رأسه تمامًا، إنها لا تدري أين الحقيقة، لهذا ينبغي الإسراع في ما عزمت عليه، ستبيع كليتها

لتنقذ زوجها و ولدها من مصير بشع، إنها لم تخبر مخلوقًا واحدًا بهذا، حتى شيماء صديقتها المقربة وكاتمة أسرارها لم تخبرها بعد، خشيت أن تعارض الفكرة أو تفشي سرها خوفًا عليها، انتظرت حتى غادر زوجها ثم ارتدت ملابسها في عجالة، ثم خرجت متجهة إلى عيادة جراح باطنة شهير في وسط القاهرة، بعد تحديد موعد معه في الصباح، وصلت إلى عيادة الطبيب عند الساعة العاشرة، طرقت الباب وهي ترتعد، كانت تعلم أنها ترتكب خطأ فادحًا، لكنها تعرف رد فعل زوجها على أمر كهذا، لقد ثار في غضب لمجرد تفكيرها في هذا الأمر، فماذا سيفعل إذا عرف أنها ذهبت إلى الجراح للإتفاق معه؟ لكن ضميرها مستريح لأنها لم تتخذ هذا القرار إلا لحماية زوجها، ومن أجل ابنها الذي يعاني الأمرين في كل دقيقة، طرقت الباب ثم انتظرت حتى أذن لها بالدخول، لاحظ الطبيب خوفها ورعشة يدها، فقال مشجعًا:

- مدام نادية أليس كذلك؟

أومأت برأسها إيجابًا، فاستطرد قائلًا:

- هل أطلب لكِ شايًا، أم تفضلين مشروبًا باردًا؟
- أريد الدخول في صلب الموضوع الذي جئت من أجله على الفور.

قال الطبيب :

- تفضلي، كلي آذان صاغية

ترددت قليلًا ثم استجمعت شجاعتها وقالت:

- أريد بيع إحدى كليتي لأي مشتر يا دكتور.
- تبيعين كليتك، لماذا!
- أحتاج إلى المال بشدة.

صدمته إجابتها الصريحة، فقال:

- لكن بيع الكلية ليس بالشيء الهين، سيكون هناك خطورة على حياتك.

زفرت في ألم أفصح عما يحتبس في صدرها:

- أعلم ذلك أيها الطبيب، وأتحمل النتائج كلها.
- هل يعلم زوجك بقرارك هذا؟

أومأت برأسها نفيًا مجيبة:

- لا يعلم حتى الآن.

سكت الطبيب محاولًا استيعاب منطقها، كانت مجرد ربة منزل تحتاج إلى المال، يبدو شيئًا في غاية الأهمية، اتخاذها لهذا القرار الخطير على الرغم من خوفها الظاهر يدل على هذا،لكنه أجابها في حسم:

لن أستطيع اتخاذ أي إجراء قبل موافقة زوجك أولًا. أسقط في يدها فغادرت المكان في سرعة دون أن تستمع للطبيب الذي أعلن أسفه لعدم قدرته على مساعدتها. خرجت نادية من عند الطبيب هائمة على وجهها، لا تدري إلى أين تذهب ولا ماذا تفعل، إنها لن تستطيع حتى بيع كليتها إلا بإذن زوجها، وزوجها لن يوافق بالطبع تحت أي ظروف، لن يوافق أبدًا، سارت نصف ساعة دون أن تشعر بالوقت، قادتها قدماها دون وعي منها إلى منزل إحدى صديقاتها التي فوجئت بنادية تقف أمامها في حالة سيئة، فزعت من مرآها على تلك الحالة، احتوتها صديقتها في لوعة وهي تسألها عما حدث، لم تجب نادية أبدًا؛ فالجواب لن يفيد، والشفقة والتعاطف لن يغيرا من الأمر شيئًا، لم تكن تريد إلا البكاء؛ فهو يزيل حملًا ثقيلًا عن الصدر أو على الأقل يخففه، إنها ترتاح عندما تبكي وهذا يكفي.

****

مر الأسبوعان بسرعة البرق، لم يتركه خلالهما أيمن إلا فيما ندر بالرغم من اعتراضه الخفي على خوضه تلك المباراة الخطيرة، جاء اليوم الذي انتظره حسام بشوق كبير وخوف أكبر، ذهب إلى صالة القتال في تمام الساعة الثامنة مساءً قبل الموعد بساعة كاملة؛ فهو يحب الاستعداد دائمًا لكل شيء، لا بد أن يفوز بأي ثمن مهما كلفه الأمر، فحياة ابنه تتوقف على نتيجة تلك المباراة، أخذ نفسًا عميقًا ليسيطر على أعصابه المتوترة، حاول الاتصال بأيمن عدة مرات دون رد، كان يحتاجه بشدة في تلك اللحظات الصعبة من حياته؛ فوجوده بجانبه سيدعمه ويطمئنه.

- (ها قد أتيت مبكرًا كما هي عادتك.)

تطلع حسام إلى القادم ثم قال :

- أحتاج إلى كل دقيقة الآن أكثر من أي وقت مضى.

ابتسم المدرب ابتسامة الغضبان قائلًا:

- لا تجهد نفسك كثيرًا فستحتاج لكل ذرة جهد في القتال.

هز حسام رأسه إيجابًا في صمت، اقترب منه المدرب واضعًا يديه على كتفه قائلًا:

- تمنيت لو تراجعت عن قرارك هذا قبل فوات الأوان، لكنك عنيد صلب الرأس.

رد حسام في هدوء:

- سبق السيف العزل يا كابتن شوقي، لو كان هناك حلا آخر لاتخذته.

تنهد في حزن:

- نعم سبق السيف العزل، ولكن ينبغى أن أبلغك أنك ستواجه واحد من أقوى مقاتلي العالم السفلي في الفترة الحالية، رأفت عزمي، هل سمعت اسمه من قبل؟

هز رأسه نفيًا مجيبًا:

- لم أسمع اسمه من قبل، لكن لا يهم، لن يختلف كثيرًا إذا قاتلت مقاتلًا من العالم السفلى أو حتى تنينًا مجنحًا؛ سأبذل قصارى جهدي في كلتا الحالتين.

مط المدرب شفتيه في سخط ثم قال:

- حسنًا أيها العنيد، أنت بالغ كفاية لتتحمل قراراتك، لكن لا بد أن تعرف شيئًا عن خصمك على الأقل.

تطلع إليه حسام في صمت، فاستطرد المدرب:

- عندما راهنت على مباراة بهذا القدر من المال، كان أخشى ما أخشاه أن يستدعوه لمجابهتك، فعلى الرغم من أنني دربت أكثرهم، إلا أنني بحكم قانون العالم السفلي رجال الأعمال هم من يقررون من سيقاتل، وقد حدث ما كنت أخشاه بشدة، اختاروه لأنه الأفضل، ألا تدري لما لقبوه بالصخرة؟!

حافظ حسام على ابتسامته بالرغم من الخوف الذي بدأ يزحف على قلبه فدمدم في خفوت:

- لا أدري في الحقيقة.
- مال شوقي نحوه و قال بنبرة تحمل تهديدا خفيا:
- لأنه يحطم عظام خصومه بشراسة، لم ينج أحد واجهه من قبل قط.

رد حسام محاولًا الحفاظ على هدوئه الظاهري:

- يبدو أنك قد أخفتني بالفعل يا مدربي العزيز، لكن كما قلت لك من قبل، إنني لن أتراجع مهما كانت التحديات، فأنا لم أخض هذه المباراة من أجل مجد شخصي، ثم صمت لحظة في تأثر قبل أن يستطرد في صوت متهدج:
- بل من أجل ابني.

كان المدرب يعلم صدقه وقلة حيلته، فتلك المباراة سيتوقف عليها مصير ابنه بالفعل، ولو كان وجد طريقًا آخر لسار فيه، لكن القدر له الكلمة الأخيرة دائمًا. ترك المدرب حسام حتى لا يبدي تأثره أمامه، حاول حسام أن يطرد الخوف والقلق الذين تخللا سويداء قلبه، شغل نفسه بتأدية تمارين التسخين لمدة نصف ساعة حتى سمع من ورائه صوتًا تقطر منه السخرية في وضوح:

- أنت حسام الأسطورة إذًا!

التفت خلفه ليجد شابًا قوي البنية، مفتول العضلات، يقف باستهتار عاقدًا ساعديه أمام صدره ومستندًا بكتفه الأيمن على الحائط، كان يتطلع إليه باستهتار عابث كأنه يريد إرسال رسالة مفادها أنه غير عابئ به، تقدم حسام نحوه وهو يمد يده لمصافحته قائلًا في ود:

- من أخبروك بذلك ربما يقصدون حسامًا آخر؟

تجاهل رأفت اليد الممدودة عن قصد، قال في سخرية لاذعة:

- لقد تأكدت من ذلك عندما رأيتك.

تجاهل حسام رنة السخرية مرة أخرى، حاول أن يظل هادئًا؛ فلا داعي للقتال الآن، يدرك أن السيطرة على الأعصاب من صفات المقاتل الناجح، وأن الغضب يقلب النصر هزيمة، و ربما يرغب المقاتل أن يفقد حسام أعصابه أو لدراسة ردود أفعاله، تدخل الكابتن شوقي قائلًا في صرامة وقلق:

- ماذا هناك يا رفاق؟ لا تنسوا أنكم تلامذتي وأنكم إخوة مهما حدث.

تبادلا النظرات المتحدية في صمت بالرغم من تحذير المدرب الصارم، قطع حسام الصمت المسيطر على المشهد وهو يقول:

- نحن إخوة بالتأكيد مهما حدث، لا تقلق يا كابتن شوقي.

نظر المدرب إلى رأفت يحثه على الحديث لكنه آثر الصمت، ثم رحل من أمام مدربه دون أن يستأذن، وكان لهذا دلالة خطيرة يعلمها المدرب جيدًا، فمع شراسته وعنفه كان رد فعله ينبئ عن الشر، التفت الأخير إلى تلميذه محذرًا:

- خذ حذرك جيدًا فهو شخص عدواني للغاية، وسيعمل على إلحاق الأذى بك قدر استطاعته؛ فبالرغم من تحذيري المستمر إلا أنه لا يستمع لنصائح.

سأله حسام في استغراب ودهشة:

- لماذا تأذنون له بخوض المباريات ما دام خطرًا على من حوله؟

أجابه المدرب في ضيق واقتضاب:

- كما قلت لك من قبل، لا يعود الأمر لي الآن.

هز حسام كتفيه في استهتار، لكن في داخله طالعه الخوف مكشرًا عن أنيابه وهو يتوعد ويزمجر.

لم تمض عشر دقائق حتى جاءت السيارات بالغة الفخامة تتهادى أمام المبنى القديم وهي تحمل رجال الأعمال وذويهم، فتيان وفتيات من عائلات ثرية جاءوا من أماكن شتى في تتابع مدروس حتى لا يلفتوا الانتباه لهم،

أخيرًا حانت اللحظة الحاسمة التي انتظرها حسام بفارغ الصبر وتحمل من أجلها الكثير، وقفا المقاتلان في وسط الحلبة في تحدٍ واضح، كل منهما يحمل نظرة صارمة، متحدية، تشف عن مدى حرص كل منهما على الفوز في المباراة بأي ثمن، وقف حكم المباراة بينهما لإعطاء الأوامر الصارمة لكل منهما، الأوامر التي لن ينفذ أيا منها مطلقًا، ثم أطلق الحكم صافرته لتبدأ المباراة.

وعلى الفور التحم الخصمين في شراسة، ومن اللحظة الأولى أدرك حسام قوة خصمه الذي يبدو كأنه قد من صخر، حاول حسام تفادي لكمة وجهت إلى وجهه في سرعة، لكنها أصابته لتلقي به بعيدًا في عنف، تصايح الجمهور في حماس وحشي وهم يشيرون بأيديهم إشارات بذيئة، افتر ثغر رأفت عن ابتسامة وحشية مقيتة وهو ينظر إلى حسام الملقى أرضًا في ازدراء، هب حسام واقفًا في غضب مكتوم، لقد سقط مع أول لكمة نجحت في الوصول إلى وجهه، مسح الدماء التي سالت من فمه ثم انقض على المقاتل بكل قوته وعناده، التحم الخصمان مرة أخرى في شراسة، نجح حسام في إصابة خصمه بلكمة قوية على صدره، تراجع رأفت على إثرها خطوة إلى الخلف، بدا الألم على وجهه لحظات قبل أن يختفي خلف وجه صارم جامد، كان يمتلك قوة تحمل عجيبة أدهشت حسام كثيرًا، تطلع رأفت إلى حسام في سخرية ثم قال هازئًا:

- أهذا كل ما لديك؟

قالها وهو ينقض على حسام انقضاضة قوية شهق لها المدرب في عنف، ربما لأول مرة في حياته كان يتابع المباراة كأب وليس كمدرب، كانت الإنقضاضاة سريعة وقوية للغاية، حاول حسام صدها أو حتى تفاديها، إلا أنه لم يكن بالقوة اللازمة لصد مثل هذه الركلة التي أطاحت به في عنف شديد حتى الجانب البعيد من الحلبة، ازداد حماس الجمهور الهستيري وهم يصرخون في تلذذ و وحشية:

- اقتله، مزقه إربًا.

تألم المدرب غاية الألم مع شعوره بما يعانيه حسام في تلك اللحظة، كان يعلم من قبل أن النتيجة ستكون كارثية بكل المقاييس، شعر حسام كأن عذاب العالمين اجتمع في صدره فحطمه تحطيمًا، لكن عناده تغلب عليه، إصراره على الفوز دفع في جسده القوة والتحمل، استحثته صرخة مدربه لعدم الاستسلام واليأس، كل هذا دفعه دفعًا للوقوف في رشاقة صارخا صرخة قتالية ألهبت الجمهور في حماس منقطع النظير، بعد أن ظنوا أن

المباراة قد انتهت تمامًا لصالح مقاتلهم الأثير، انقض حسام على خصمه كالنمر الجريح وهو يصرخ بشراسة رهيبة.

****

تطلعت نادية إلى صورة فوتوغرافية لابنها في ألم وحزن يفوقان الوصف، تداعت ذكرياتها معه في اشتياق ولهفة، حتى أنها لم تنتبه لبكاء طفلتها المنبعث من الغرفة المجاورة مباشرة، بغتة طرق الباب طرقًا عنيفًا، أسرعت نادية لتفتحه فطالعها أيمن الذي صاح في انفعال :

- نادية، حسام يقاتل الآن، و لا يوجد أحد سواك يستطيع إيقافه.

صرخت نادية في لوعة، شعرت أن الخبر وقع عليها كصخرة ثقيلة سقطت على رأسها من قمة جبل عالٍ، كذب عليها حسام لأول مرة، وها هو يلقي بنفسه في التهلكة، صاحت :

- خذني إليه بسرعة قبل أن يتسبب في قتل نفسه.

كادت تنسى ابنتها سلمى لولا أنها بكت مرة أخرى فهرعت إليها لتأخذها ثم انطلقا سويًا إلى صالة القتال وهي تتضرع إلى الله أن تصل إليه قبل فوات الآوان؛ لن تتحمل حدوث مكروه له، كفاها ما تتحمله من عذاب وأسى لمصاب يحي. لم يستطع أيمن الذهاب مع صديقه لمؤازرته في مباراة الليلة ويراه في هذا الوضع الخطير، لم يجرؤ حتى للرد عليه من خلال الهاتف، كان يشعر أنه أورده مورد التهلكة، لذا ذهب لزوجته يخبرها كي تنقذه قبل فوات الأوان ،انطلق بسيارته بأقصى سرعة تسمح بها إشارات المرور، صاحت نادية هلوعة:

- أسرع يا أيمن أرجوك.

ضغط أيمن دواسة الوقود ملقيًا كل التزامه بإرشادات القيادة جانبًا، ثم أدار المقود بحركة حادة ليخترق طريقًا جانبيًا مختصر، أطلق عبره أداة التنبيه بكل عنف لتشترك مع صراخ عجلات السيارة الصغيرة في إفزاع المارة الذين انطلقوا خائفين في كل مكان هربًا من الإصطدام بالسيارة المجنونة التي انطلقت في سرعة لا تناسب طبيعة الطريق ولا إمكانياتها المتواضعة، وقد نمى في ذهن أيمن هدفًا واحدًا «الوصول في الوقت المناسب مهما كان الثمن».

****

انقض حسام على خصمه انقضاضة أودعها كل غضبه وانفعاله، لم يكن حسام بالمبتدئ، بل كان مقاتلًا صنديدًا تنبأ له الجميع في يوم من الأيام بالمستقبل الباهر، انقض على خصمه يضربه بكل ما أوتي من قوة، حتى

إن كثير من لكماته نجحت في الوصول إلى أهدافها كلها، و تراجع رأفت في سرعة أمام هجمات حسام المؤلمة، بدا الألم على ملامح وجهه حليا، و صاح الجمهور في شراسة واعتراض وهو يرى بطله يرزح تحت وابل من اللكمات القاسية، تماسك رأفت بعد تلك الهجمة ببطأ وصعوبة ليشرع في هجومه الضارب من جديد، أدرك حسام ذلك عندما نظر إلى عينيه، كانت عيني دب ضخم جريح قرر الانتقام والثأر ممن سلبه أبناءه، إنه يعرف تلك النظرة جيدًا، و بالرغم منه شعر بالخوف يقتحم قلبه دون استئذان، زاد من خوفه صراخ الجمهور الجنوني، انقض رأفت على خصمه بركلة قوية قاصدًا بها وجهه، كان يعلم ضعف حسام الدفاعي أمام ركلاته، استقبل حسام الركلة بحركة دفاعية بيده، نجح في صدها بالرغم من الألم الذي شعر به في مرفقه، لكن رأفت عاجله بعدة لكمات قوية ثم قام بتنفيذ ركله جانبية سريعة أصابت أنفه مباشرة لتلقي به جانبًا، أثار ذلك شهية الجمهور المتعطش للعنف حين رأى حسام ساقطا على وجهه خامد الحركة، جرى المدرب ناحية حسام هلوعا، حاول إيقاف النزيف باستخدام منديل جاف وثلج، استعاد حسام وعيه وهو يشعر بدوار وألم شديد في أنفه ووجهه، تأوه عدة مرات في حين كانت أنفه ما تزال ترعف، ساعده المدرب على الجلوس مع إمالة الرأس لأسفل ليوقف النزيف الغزير، في تلك اللحظة كان المقاتل الآخر يرفع يديه مشيرًا بأصبعيه السبابة والوسطى علامة النصر في وجه الجمهور، دون أن يأبه لخصمه الراقد على الأرض دون حراك، أثار هذا غضب حسام و سخطه و نقمته، خسارة المبارة لا تعني إلا شيئًا واحدًا، خسارته لحياة ابنه، وهو لن يقبل بهذا أبدًا ما دام في الصدر نفسًا يتردد، تحمل كل ما يشعر به من آلام ودوار، وقف على قدمية من جديد ليواجه خصمه المتوحش، حاول مدربه إثناءه عن الاستمرار في القتال حتى لا يخسر حياته، حاول محاولة الأب الذي يخشى على ابنه من مواجهة ذئب شرس مفترس يشتهي الدم، و سيقضي على حياته، إلا أنه لم يتمكن من منعه من مواصلة قتاله، التفت رأفت ناحية حسام في سخرية قائلًا :

- يبدو أنك لا تتعلم من أخطائك أبدًا.

على الرغم من السخرية الواضحة في كلامه، لكنه في قرارة نفسه كان يشعر بالإعجاب الشديد تجاه حسام، فرجل في سنه مع تركه للقتال منذ سنوات طويلة، ما كان ليستطيع أبدًا الصمود أمامه كل هذا الوقت لو لم يكن قد من حديد، لقد سقط مرارًا، وفي كل مرة، يقف في شموخ ليظهر

معدنه الصلب، نحى المقاتل شعوره بالإعجاب جانبًا، ثم استعاد قسوته وشراسته، واجه حسام المتهالك قائلا في غلظة و استخفاف :

- ستكون مواجهتنا الأخيرة، استعد.

حاول حسام الوقوف منتصب القامة في صعوبة، ترقرق الدمع في عيني المدرب شوقي دون أن يحاول منع دموعه من الإنهمار، لم يستطع منع مشاعر الأبوة الكامنة داخله، فصرخ :

- لا يا حسام، استسلم يا بني قبل أن تخسر كل شيء.

تجاهل حسام ندائه تمامًا، أشار للحكم علامة الإستعداد للقتال، نظر الحكم إلى المقاتلين في صرامة يأمرهم بالقتال النظيف، هز حسام رأسه في انصياع، في حين قال رأفت متهكما :

- اطمئن، لا أحتاج إلى الضرب في الأماكن المحظورة للقضاء على خصومي.

اشتبك الخصمان مرة أخرى في عنف زائد عن الحد، حاول فيها حسام التعلم من أخطائه السابقة، حيث تفادى الكثير من الركلات واللكمات التي وجهت له في مهارة وسرعة كبيرين، ثم انقض بكل قوته على خصمه العنيد بلكمات أرادها حاسمة، كان يستهدف الوجه و الصدر في تتابع مذهل، ويبدو أنه نجح؛ فضرباته أصابت خصمه بقوة زلزلته و جعلته يسقط على ظهره لأول مرة منذ بدأ القتال، امتلأ قلب رأفت بالغل و الغيظ، لقد نجح خصمه المهل في إسقاطه أرضًا، و هذا في شريعته يعد امتهانا لكرامته، لم يتخيل أن تصل الأمور إلى هذا الحد قط، انتصب واقفًا وهو يحدجه بنظرة غاضبة، مسح خيط الدماء من طرف شفتيه، ثم انقض عليه انقضاضة دب جائع.

****

انطلقت السيارة تلتهم الطريق في شراهة وقائدها يأمل أن يصل في الوقت المناسب، بدا من بعيد مبنى عتيق يقبع في منطقة نائية، فصاح أيمن في لهفة شديدة:

- ها هو المبنى لقد اقتربنا.

خفق قلب نادية في عنف و هي تسأل نفسها في قلق بالغ رهيب هل وصلوا في الوقت المناسب؟

وجه رأفت لكماته وركلاته لخصمه، أصابت ضرباته وجهه وصدره وبطنه، في عنف بالغ، كان يبدو كبحر هائج، يفور و يمور محطما سفنا و

مدمرا بوارج، تحمل حسام كما لم يتحمل من قبل قط، حاول التماسك أمام السيل العرم، لكن لكمة عنيفة نجحت في إصابته في وجهه مباشرة فارتد في عنف كأنما أصابه طوربيد جامح، تبعتها ركلة قوية أصابت صدره فأسقطته أرضًا كتمثال من الجبس، شعر حسام بالآلام تحتل جسده بقسوة، و بعدم قدرته على تحمل المزيد، ثم وقف على قدميه مرة أخرى في صعوبة بالغة، لكن خصمه لم يمهله لحظة واحدة ليستعيد توازنه، وجه لكماته وركلاته لكل منطقة استطاع الوصول إليها من جسده، أعماه غضبه عن رؤية أي شيء ما عدا هزيمته، بعد أن شعر أن كرامته كمقاتل له وزنه باتت مهددة، ترنح حسام تحت وطأة الضربات بالغة الشراسة، ثم تلقى وجهه وصدره وابلًا آخر من اللكمات المتتالية أسقطته أرضًا بلا حراك، لم يمهله خصمه مهلة لاسترداد أنفاسه حتى وهو ساقط أرضًا دون حراك، اعتلاه مسددًا لكماته لوجهه وصدره، و كأنه يريد التأكد من سقوط آخر معاقله، غابت الدنيا أمام عيني حسام وانهارت مقاومته تمامًا، لكن خصمه بدا كالمجنون الذي لا يعنيه شيء غير القضاء على غريمه قضاءا مبرما، صرخ المدرب في صرامة ولوعة كي يتوقف، لكن رأفت أصبح كآلة للقتال ضاع مفتاح إغلاقها للأبد، ثم انطلقت صرخة، صرخة أنثوية ملتاعة، شقت صراخ الجمهور الهيستيري المجنون، صرخة شلت جسد رأفت الذي ترك جسد حسام الساكن وتطلع إلى مصدرها في دهشة،
فطالعه وجه امرأة ملتاعة تنظر إليه في غضب و ذهول قبل أن تسقط فاقدة الوعي.
انطلق المدرب ناحية حسام ثم أبعد رأفت عن جسده في غلظة، تلفظ حسام باسم زوجته وهو يشير بأصابع مرتجفة نحو جسدها الملقى أرضًا ثم غاب عن الوعي تمامًا، تأكد المدرب من أن قلبه ما يزال ينبض، أشار إلى البعض لحمله إلى أقرب مستشفى لإنقاذ حياته، ثم تمتم في تأثر:

- كنت أعلم أن هذا سيحدث يا حسام، كنت أعلم ذلك.

****

مضت ثماني وأربعون ساعة كاملة قبل أن يستفيق حسام من غيبوبته، كان شديد الإنهاك والإرهاق كأنما خرج لتوه من معركة مستعرة، أو كأن جسده عبر عليه قطار الشرق السريع فمزه إربا، حاول أن يجلس على الفراش دون جدوى، عجز عن تحريك أي عضو غير يده، أدرك عندئذ فداحة إصابته، و خشي أن يكون قد أصيب بالعجز أو بعاهة مستديمة، نفض هذه الفكرة البشعة من مخيلته، و انتبه عندئذ للضمادات التي تحيط بوجهه،

فتحسسها بيده في حذر شديد، يبدو أنه قد أصيب في وجهه بضرر بالغ، سيطر على أعصابه بقوة، أعاد تفكيره لنقطة واحدة فقط، «ابنه»، اعترف في نفسه أنه فشل فشلًا ذريعًا، شعر بغصة في حلقه تخنقه كأن سكينًا حادًا مزق قلبه دون رحمة أو هوادة، تمتم في يأس:

- يا ليتها كانت القاضية، كان سيكون أفضل من هزيمة ستتسبب في خسارة ابني إلى الأبد.

ثم تسائل في حيرة قاتلة:

- ما العمل الآن؟

لقد فعل كل ما يمكنه فعله، لكنه فشل في النهاية، لكنه لن يعلن فشله بعد، ما تزال هناك فرصة مهما بدت ضئيلة، صغيرة، بعيدة، صعبة المنال، لن ييأس أبدًا، فاليأس للكافرين، وهو ليس بكافر، انسابت بالرغم منه ذكرياته مع يحيى، طفولته، لعبه، ابتسامته، بكائه، مرضه. نفض ذكرياته التي تقلبت أمام عينيه كمشاهد مصورة لفيلم قديم بالأبيض والأسود، و صاح بغضب:

- لا، لم يحن الوقت بعد للحزن والبكاء على ما فات.

ثم استعاد حماسه كله دفعة واحدة، حتى أنه اعتدل في فراشه جالسًا دون أن يشعر بألم، لا بد أن يفكر حتى يجد حلًا حاسمًا، لو فشلت القوة، ستنجح الحيلة لا محالة، اعتصر مخه بشدة على الرغم من ذهنه المشدوه، لا بد أن تجرى العملية في وقتها المحدد بأي طريقة مهما كانت النتائج، ومهما كانت المخاطر، ومهما كانت الصعوبات ولكن كيف، كيف يتمكن من تنفيذ ذلك وهو بهذا الضعف؟ التمعت عيناه بغتة من الفرح، لقد وجدها، وعلى الرغم من غرابة الفكرة وجنونها وخطورتها، لكنها الطريقة الوحيدة لإجراء العملية، ليس هناك وقت ليفكر في مدى جنونها أو خطورتها، بحث عن هاتفه في استعجال وتخبط، أجرى اتصالًا بمدربه العجوز طالبا منه مساعدته في تنفيذ خطته، هو الوحيد القادر على ذلك بما لديه من خبرة و من رجال، أخبره أن يأتي إليه في أقرب وقت، ثم أغلق الهاتف في ارتياح، و أغمض عينيه في ألم وإرهاق، والسؤال يدور في ذهنه بلا كلل:

- هل ستنجح خطته هذه المرة؟

****

حضر المدرب بمفرده في صباح اليوم التالي، لم يصدق نفسه عندما رأى حسام نشيطًا يقظًا على الرغم من الضمادات التي تغطي نصف وجهه، و زوجته تجلس بجواره في هدوء، صاح المدرب في فرح مخلوط بالدهشة:

- حسام، حمدًا لله على سلامتك.

ابتسم حسام وهو يتسائل في تهكم:

- عن أي سلامة تتحدث! أشعر كأنه صدمني قطار في عنف و قسوة فلم يعد يصلح في جسدي شيء.

أجابه المدرب بهدوء و هو يخفي تأثره:

- لقد حذرتك يا بني مرارًا ولكنك لم تكن تستمع إلى نصائحي.

ثم التفت إلى زوجته قائلًا في امتنان:

- لولا تدخلك في الوقت المناسب لأصبح زوجك في خبر كان.

أشاحت نادية بوجهها محاولة إخفاء حزنها و توترها، سأله المدرب في اهتمام يمتزج بالقلق:

- لماذا طلبت مني الحضور بأقصى سرعة؟ هيا اصدمنى بخطة مجنونة أخرى؛ فلم تعد تصيبني الدهشة من جراء أفعالك بعد اليوم.

ابتسم حسام في حزن قبل أن يقول لمدربه:

- ارعني سمعك وتركيزك جيدًا؛ فأنا أحتاج إلى خبرتك وإمكانياتك وتلامذتك في تنفيذ ما أعدته من خطة قد تنهي متاعبي للأبد.

زاد توتر المدرب وقلقه للغاية، عاد بجسده إلى الخلف محاولًا دفع بعض الهدوء والإطمئنان إلى نفسه و هو يقول :

- هات ما لديك، فما سيأتي لن يكون أسوأ مما مضى بالتأكيد،

وكان مخطئًا.

****

كانت الدهشة تملأ محيا المدرب العجوز عن آخره، فما سمعه منه كان الجنون ذاته، ذلك لأن حسام لم يكن لديه ما يخسره بالفعل، إما أن ينقذ ابنه، أو يفقده إلى الأبد، أملاه الخطة في بساطة مدهشة و كأنه يقص عليه قصة من القصص البوليسية الممتعة، استطاع المدرب استيعاب ما قيل بالرغم من غرابة ما سمع، ومع ذلك خاطبه معترضًا:

- يبدو أنك تهذي يا حسام من إثر إصابات جسدك العنيف.

سأله حسام في بساطة مستفزة:

- لماذا يا مدربي العزيز؟

صاح المدرب في غضب وغيظ:

- إن ما تطلبه مستحيل يا رجل، السطو على بنك أهون الف مرة مما تطلب، سوف تؤلب علينا السلطات الأمنية و يتهموننا بالإرهاب، وهذا ما لا تود حصوله أبدًا إن كان ما يزال بك بقية من عقل.

رد حسام في هدوء يوحي بالثقة:

- لا تقلق من هذه الناحية، سندرس المكان جيدًا ثم نعد خطة الإقتحام على أساس المعلومات التي سنحصل عليها، ثم ننفذ العملية في سرعة وسرية دون أن يشعر بنا أحد.

صمت المدرب لدقيقة كاملة أو يزيد، ثم قال في هدوء:

- لا تجعل المظاهر تخدعك؛ فالأمر أشد تعقيدًا مما تتصور، على العموم اترك لي وقتًا للتفكير فأنا أحب التريث قبل اتخاذ القرارات المصيرية.

قال حسام في حماس:

- حسنًا خذ وقتك كاملًا، وحتى ذلك الحين سنجري بعض الإختبارات والفحوصات اللازمة للتأكد من استعداد يحيى لإجراء العملية، واستعداد أمه كذلك لنقل جزء من كبدها.

صاح المدرب في غيظ:

- آه، كان ينبغي أن أعلم أنك و زوجتك متفقان على كل شيء، لهذا ظلت صامتة طوال حديثك ولم تعترض أبدًا.

قالت نادية في حزم:

- ليس أمامنا خيار آخر، لن نقف مكتوفي اليدين لأننا فقراء لا نملك المال الكافي، حياتنا رخيصة في سبيل يحيى.

ابتسم المدرب في إعجاب واضح لحزمها وصلابتها ثم قال:

- يبدو أنكما تتشابهان في خصال كثيرة، صدقوني أتمنى لكم التوفيق من كل قلبي.

غادر المدرب في تأثر، وفي أعماقه قرر أن يساعدهما بكل ما أوتي من قوة، حتى ينقذ يحيى من مصيره البشع، ومن أجل الزوجين نادري الوجود مهما كان الثمن.

****

استمرت نادية في إجراء الفحوصات المطلوبة، في حين عاد حسام إلى بيته بعد مكوثه يومان في المستشفى حتى استعاد بعض من عافيته، كان ما يزال يعاني من آلام متفرقة في أنحاء جسده، إلا أنه تجاهل كل ذلك في محاولة منه للتركيز على ما هو مقبل عليه، انطلق رنين هاتفه فالتقطه

حسام متلهفا، أبلغه مدربه أنه قادم إليه ومعه بعض الشباب الذين تم اختيارهم بعناية للقيام بالمهمة، لم تمضي ساعة حتى كانت الغرفة ممتلئة بأكثر من عشرة شباب صافحوه وهنأوه لسلامته، انتقى المدرب كرسيًا مريحًا ليجلس عليه قبالة حسام الراقد على الفراش، ثم قال :

- لقد توصلنا سويًا إلى كيفية تنفيذ الخطة بإتقان.

تطلع إليهم حسام في امتنان قائلًا:

- لا أستطيع شكركم شكرًا كافيًا على ما...

قاطعه أحدهم :

- لا عليك يا رجل، نحن لم نفعل ذلك من أجلك، بل من أجل يحيى.

نظر إليه حسام مبتسمًا و هو يتسائل:

- لم يدر بخلدي قط أنك ستشاركنا العملية.

قال الشاب_ الذي لم يكن سوى رأفت _ في حزن وأسف:

- أردت أن أكفر عن خطأي، لم أكن أعلم أنك تقاتل من أجل ابنك، صدقني لو كنت أعلم ما اعتديت عليك بهذه الطريقة الوحشية أبدًا، ولولا أنهم حرموني من مكافأتي المالية لأعطيتها لك كلها عن طيب خاطر.

انعقد حاجبا حسام وهو يسأله:

- لماذا منعوا عنك تلك المكافأة بعد أن تغلبت علي؟
- لأنني توقفت عن ضربك قبل استسلامك ودون إذن الحكم. تدخل المدرب قائلًا:
- دعونا نبدأ مناقشة الخطة على أساس ما توفر لنا من معلومات.

نظر إليه الجميع في انتباه شديد، فاستطرد في حزم:

- لكن ينبغي أن تعرفوا جميعًا أننا سنقدم على عمل في منتهى الخطورة، وقد يهدد حياتنا أو حريتنا للأبد.

وافقه الجميع بإيمائة رأس أو بإجابة مقتضبة، ولمدة نصف ساعة كاملة شرح لهم كيفية حصولهم على مسدسات الصوت التي سيستخدمونها في عملية الإقتحام، ودور كل واحد منهم بدقة في المهمة التي ستبدأ بعد أقل من ثماني وأربعين ساعة من الآن.

****

كانت الساعة تشير إلى تمام الواحدة صباحا، عندما توقفت سيارة چيب سوداء كبيرة في الشارع المواجه لمركز طبي خاص لزراعة الكبد، في حين توقفت سيارتان بنفس لون وماركة الأولى في الشارع المواجه للفناء

الخلفي، نزل من إحداها شاب طويل القامة قوي البنية يتشح بالسواد من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، راح يتفحص المكان حوله ليطمئن أن الطريق خالٍ، ظل على حالته دقيقة كاملة قبل أن يشير بيده بطريقة خاصة متعارف عليها، نزل على إثرها أربعة يتشحون بالسواد مثله، تسللوا بخفة وحذر ثم تسلقوا مواسير الصرف بسرعة حتى وصلوا إلى السطح، ما إن استقروا عليه حتى أعطوا إشارة الأمان للقابعين في السيارة بالأسفل، فنزل أربعة آخرون من السيارة الثانية يرتدون نفس الثياب، حيث تسللوا بسرعة كبيرة حتى وصلوا إلى الباب الخلفي للمركز الطبي، ثم انتظروا حتى لحق بهم المدرب العجوز، طرق أحدهم الباب في هدوء، مضت فترة من الصمت ثم فتح أحد أفراد الأمن، الذي يبدو أنه كان مستغرقًا في النوم فقد أخذ يفرك عينيه وهو يسأل مستغربًا:

- من أنتم؟

كانت الإجابة على هيئة لكمة قوية صنعت صوت ارتطام ثم صوت سقوط على الأرض في سرعة وهدوء، و ليعود إلى نومه العميق مرة أخرى، لم يكن هذا الشخص الضارب سوى رأفت الذي تسلل هو ورفاقه بعدها إلى الداخل في سرعة، ليصادفوا اثنين من أفراد أمن المركز الطبي وهم يتسامرون في هدوء، ويدخنون سجائر ذات رائحة نفاذة، تسمرا فردي الأمن في رعب عندما وقعت أعينهم على الأشخاص المتشحين بالسواد، لم يمهلهم فريق الإقتحام مهلة لإدراك ما يحدث، فقد تحركوا بسرعة كبيرة ليسيطروا عليهما دون أدنى حركة منهم، فضلًا عن المقاومة، لم تمض عشر دقائق أخرى حتى كانوا يسيطرون على السطح والفناء الخلفي للمركز الطبي، لم يتبقى إلا البوابة الأمامية التي تمت السيطرة عليها بعد مقاومة بسيطة من ثلاثة من أفراد الأمن كانوا يحرسونها، كانت عملية الاقتحام والسيطرة تجري في هدوء وسرعة كبيرين، مسلحين بأسلحة صوت استعارها الكابتن شوقي من أحد أصدقائه المقربين الذي يملك محلًا لبيع هذه الأسلحة الصوتية، سيطروا على المركز الطبي دون أن ينتبهوا إلى أن هناك من كان يتابع ما يحدث من أعلى بدهشة كبيرة و ذهول تام، كانت تلك المرأة تقف في شرفة منزلها المقابل للجهة الخلفية للمركز الطبي تتحدث في هاتفها المحمول في عصبية، لكنها توقفت عن حديثها العصبي بغتة و راحت تتابع ما يحدث في ذهول، وكان هذا كفيلًا بقلب الأمور رأسًا على عقب. في نفس الوقت و بمكالمة هاتفية قصيرة صادرة من هاتف الكابتن العجوز، ترجل حسام و أيمن من السيارة الأخيرة يحملون فراشًا طبيًا صغيرًا استقر عليه يحيى في سكون، ترافقهم نادية و هي تتطلع إلى

يحيى النائم في خوف، ثم يسير خلفها آخر فردين من أفراد المجموعة و هما يدفعان أمامهما طبيبي الجراحة والتخدير، الذين أحضروهما بالإكراه تحت تهديد السلاح. انطلق السائق بالسيارة السوداء بعيدًا عن المكان، في حين انقادا الطبيبين خلف الفراش الطبي الصغير، دخلوا كلهم سريعًا ثم أغلقوا الباب خلفهم في إحكام، وضع حسام وأيمن الفراش الطبي في المصعد، ثم ضغط الأول الزر الذي يشير إلى الطابق الثالث، صعد بهم المصعد على الفور بعد أن لحقت بهم نادية، في حين صعدا الباقون على درجات السلم حتى الطابق الثالث، حيث ستجرى فيه العملية الجراحية، فوجئتا ممرضتين بباب المصعد يفتح، و يظهر داخله رجلين يتشحون بالسواد وامرأة، يقفون كلهم خلف فراش طبي صغير استقر عليه طفل نائم، كادا يصرخان لولا أن استل الرجلين مسدساتهم، وأيمن يصيح :

- إياكم أن تنطقوا حرفًا واحدًا وإلا...

كتمتا الممرضتان صرخاتهم خوفًا على أرواحهم، كان المبنى خاليًا إلا من طاقم التمريض الموجود في الوردية الليلية، سارتا الممرضتان و هما ترتعدان في رواق طويل، يسير خلفهما حسام وأيمن حاملين الفراش الطبي، تتبعهما نادية التي ينهشها القلق خوفًا من فشل الخطة، ساروا حتى وصلوا إلى غرفة العمليات، لحق بهم في تلك اللحظة المدرب العجوز واثنان آخران يدفعان أمامهما الطبيبين في غلظة، أعطى المدرب التعليمات الصارمة لطاقم التمريض لتجهيز غرفة العمليات بأقصى سرعة ممكنة، اندفع الطاقم لتنفيذ الأمر دون إبطاء فى حين انتفض الجراح الكهل صائحًا في حدة:

- أنتم ترتكبون جريمة طبية وستعاقبون عليها جميعًا.

أجابه المدرب في نبرة صارمة:

- لا تشغل بالك بنا أيها الطبيب، كل ما أريده منك الليلة أن تجري العملية بكفاءة عالية؛ لأنه لو حدث مجرد خطأ بسيط فستكون النتيجة أن تفقد حياتك.

قال عبارته الأخيرة في صرامة شديدة، فاكفهر وجه الطبيب الكهل أمام هذا التهديد الصريح، لم يعجب حسام لهجة مدربه شديدة الصرامة، خاصة أنهم قاموا باختطاف الطبيب الكهل من أمام منزله منذ ثلاث ساعات، و هذا عمل إجرامي و لا شك، لكن الضرورات تبيح المحظورات، أشاح بوجهه بعيدًا ليفكر في ما هو قادم، كان يخشى بشدة من الأخطاء التي قد تحدث من الطبيب بسبب خوفه على حياته، لذا كان من الحكمة أن يسكن خوفهم ويطمئنهم على حياتهم، انتظر حتى أعدوا الغرفة لإجراء العملية

وتوفير كافة الأدوات المستخدمة في إجرائها، ثم ذهب إليهم قائلًا في لهجة هادئة تبعث على الطمأنينة:

- أرجوا أن تغفروا لي أيها السادة، فلولا الضروروة القصوى ما أقدمت على هذا أبدًا، أنتم تعلمون أن...

قاطعه طبيب التخدير الشاب في شجاعة:

- لا تحاول تحسين صورتك أمامنا، ما أنتم إلا حفنة من المجرمين الذين يتخذون دائمًا مبدأ الغاية تبرر الوسيلة.

تنهد حسام في حزن:

- كلا، لا أحاول تحسين صورتي أبدًا، كل ما أحاول فعله هو شرح الأسباب التي أدت إلى هذا الموقف القبيح.

قال طبيب التخدير في تهكم ساخر قاسٍ:

- اختطاف جراح كبير من أمام منزله، وإجباري على المجيء معكم من المستشفى الأخرى التي أعمل بها، ثم اقتحام مركز طبي وإرهاب طاقم التمريض من النساء، وتعريض حياة المرضى فيه للخطر، ماذا تسمي هذا إن لم يكن أعمال إرهابية حقيرة؟

همَّ حسام بالرد عليه، لولا أن تدخل شوقي هاتفا:

- هل سنقضي ليلتنا نتحدث أيها الطبيب، هيا قم بعملك حتى يستطيع الجراح القيام بعمله.

التقت عينا طبيب التخدير بعيني المدرب الظاهرتان من خلف القناع الأسود للحظات في تحد صامت، أشاح بعدها بوجهه في غضب مكتوم ثم تركهم ليقوم بعمله، تقدم الجراح ناحية حسام طالبًا منه الإطلاع على الفحوصات التي أجروها على المريض وأمه، ليتأكد من جاهزيتهم لإجراء العملية، تطلع إليها الطبيب للحظات ثم أعادهم لحسام مرة أخرى قائلًا:

- جيد، لكن عندي سؤال أود طرحه عليكم من فضلكم.
- هات ما لديك يا رجل ولا تخف شيئًا

سأله الطبيب في وضوح:

- ما الذي يمنعكم من التخلص منا بعد إجراء العملية؟ ولا تقل لي أننا لم نرى وجوهكم، فنحن نستطيع التعرف عليكم من خلال أصواتكم.

حينها خلع حسام القناع الذي يغطى وجهه قائلًا بنبرة حاسمة قوية:

- نحن لسنا مجرمين و لا رجال عصابات تخطف و تقتل من أجل المال، إنما فعلت ما فعلت لأنقذ ابني من الموت، وهذا حقي الشرعي، لن يترك أبٌ ابنه للموت دون أن يفعل شيئًا، ها هي هويتي لتتأكدوا أنه هذا الصبي ابني وأن هذه زوجتي، أنا أسعى فقط

للحفاظ على حياة ابني المسكين الذي لا ذنب له، وزوجتي هنا تتبرع له بجزء من كبدها لإنقاذه على الرغم من خطورة ذلك على حياتها، أيًا منكم كان سيفعل كل ما يلزم لإنقاذ ابناءه من الموت، هذا ما غرسه الله فينا، الدفاع عن الذرية ضد أي خطر، ولو أنكم تتهمونني بالإرهاب فقولوا لي بالله عليكم ما الذي كان بيدي لأفعله؟ لقد سعيت بكل الطرق لكنني وجدتها كلها مسدودة، ما ذنبي أنني لا أملك مالًا لإجراء عملية كهذه؟!

ظل الجميع صامتون يحدقون فيه متأثرين، اندفعت إحدى الممرضات تقول في حماس :

_ سنقوم بإجراء العملية لابنك و سيعود أفضل مما كان.

لا يدري الفريق الطبي لماذا شعروا بالطمأنينة تجاهه، أو ربما لم يكن أمامهم حل آخر بعد أن انتزعت منهم هواتفهم لينقطعوا عن العالم الخارجي. التفت حسام إلى رفاقه يطلب منهم أن يغادروا غرفة العمليات حتى لا يسببوا خوفًا و ذعرا لهم، غادروا الغرفة، في حين اقترب منه المدرب قائلًا:

- كيف ستتأكد من قيامهم بالعملية إذا لم يكن عليهم رقيب.

قال حسام في ثقة:

- لا تقلق يا مدربي العزيز، سيقومون بما يملي عليهم ضميرهم.

تدخل أيمن قائلًا:

- أنا اتفق معك تماما فى. هذا، فوجودنا معهم سيزيد الضغط عليهم كثيرًا و هذا ليس في صالحنا على أي حال.

وافقه حسام بإيمائة من رأسه، مط المدرب شفتيه في عدم ارتياح قبل أن يأمر اثنين بالصعود إلى السطح لتأمينه، في حين وقف الثلاثة أمام غرفة العمليات بعد أن أغلقوا بابها في إحكام. ما إن غادروا الغرفة حتى تنفس الفريق الطبي الصعداء، خاطب الطبيب فريق التمريض قائلًا في هدوء رصين:

- إننا لن نقوم بهذه العملية بدافع الخوف، بل بدافع الضمير والواجب تجاه طفل بريء لا ذنب له في مرضه الخطير، حتى لو كان أبوه إرهابيًا بالفعل، وهذا يحتم علينا أن نبذل كل ما في وسعنا لإنقاذ حياته، هل فهمتم؟

أومأوا برؤسهم جميعًا علامة الموافقة وهم يتطلعون إلى الأم وابنها الواقعين تحت التخدير في تعاطف، ثم شرعوا في إجراء العملية في حماس و اهتمام.

ابتسم حسام في امتنان _ كان يطالعهم خلسة- وهو يشاهدهم يشرعون في إجراء العملية في سرعة و مهارة، ارتاح قلبه أخيرًا، ها هو يقترب من الخطوة الأخيرة في مرحلة الشفاء، شفاء أحب الناس إلى قلبه.

****

لم يمض على نومه أكثر من ثلاثة ساعات عندما رن هاتفه لينتزعه من نومه انتزاعًا، راح العقيد عصام يعبث بيده باحثًا عن الهاتف، تسائل في سخط عن الوغد الذي يتصل به في وقت متأخر كهذا، ثم ارتفع حاجباه في دهشة بالغة عندما وقعت عيناه على اسم مدير الأمن شخصيًا، لم يضع وقتًا في التساؤل عن السبب الذي يدعوه شخصيًا للاتصال به في هذا الوقت المتأخر، نفض عن نفسه الذهول وهو يجيب بصوت بدا قلقًا للغاية:

- العقيد عصام في خدمتك يا سيادة اللواء.

بدا صوت مدير الأمن شديد الانفعال وهو يصيح:

- هناك إرهابيون اقتحموا مركز طبي كبير و سيطروا عليه.

كرر عصام في ذهول و حيرة:

- إرهابيون! مركز طبي! وما الذي يدفع إرهابيين لفعل ذلك؟

هتف المدير في حدة و عصبية :

- لا أعرف يا عصام، لقد أبلغت امرأة عن رؤيتها سيارتين تقفان في الفناء الخلفي لمركز طبي في المعادي، ثم نزل منهما عدة رجال متشحين بالسواد اقتحموا المركز الطبي من الفناء الخلفي والسطح، دون أن يطالبوا بأي شيء منذ عملية الاقتحام منذ نصف ساعة.

لم يستطع عصام هضم ما سمعه مما دفعه لأن يقول:

- اعذرني يا سيادة اللواء لكني لا أفهم شيئًا.
- أنا أيضًا لا أفهم شيئًا، ارتد ملابسك واذهب فورًا إلى هذا المركز الطبي، و ستلحق بك قوات الأمن إلى هناك.

ذهب كل أثر للنوم من عينيه وهو يجيب في احترام :

- سأذهب فورًا يا سيادة اللواء.

أغلق هاتفه و هو يتسائل في حيرة:

- ما الذي يحدث هناك في هذا المركز الطبي بالتحديد؟!

****

تابع حسام العملية التي تجرى في غرفة العمليات في نشاط و همة من قبل الأطباء، وعلى الرغم من القلق البالغ الذي تغلغل في نفسه، إلا أن هذا لم يمنعه من الابتسام في تقدير و إعجاب تجاه هؤلاء الأشخاص الذين يجرون

العملية في إخلاص واضح و تفان عجيب، شعر حسام بيد توضع على كتفه بغتة، فالتفت ليجد المدرب يحدجه في استغراب قائلًا:

- لا أدري كيف تبتسم في وقت خطير كهذا يا حسام؟!

تطلع حسام من خلال نافذة غرفة العمليات قائلًا في هدوء:

- هؤلاء القوم يثيرون في نفسي الإعجاب والدهشة في آن واحد، فعلى الرغم من الطريقة القاسية التي أحضرناهم بها، وبالرغم من خوفهم الطبيعي على حياتهم، لكنهم تناسوا كل ما فعلناه في بساطة، بل و يبذلون كل ما يستطيعون الآن لإنقاذ ابني وزوجتي.

أجابه المدرب في حزم:

- هكذا هم الشرفاء دائمًا، يتجاهلون ما لاقوه من أذى إذا دعاهم الواجب لنسيانه.

حرك حسام رأسه في إعجاب واضح قائلًا:

- نعم، كل إناء بما فيه ينضح.

أومأ المدرب برأسه موافقًا ثم قال في إرهاق:

- سأذهب يا حسام لأغفو قليلًا؛ فأنا قد أصبحتُ شيخًا كبيرًا، و لا أستطيع السهر حتى وقت متأخر من الليل.

قال حسام مشفقا:

- لا بأس يا كابتن شوقي، اذهب أنت و ...

قاطعه فجأة أحد رفاقه هاتفا في فزع:

- لن تصدقوا ما حدث، قوات الأمن تحاصر المركز من كل مكان.

انطلقوا يعدون حتى وصلوا إلى السطح، وهناك رأوا عشرات من قوات الأمن يحاصرون المبنى من كل الجهات، بل و هناك طوق أمني تم وضعه لمنع الصحفيين والإعلاميين من الدخول، ذهول تام أصابهم في قسوة، جعلهم يقفون مشدوهين لدقيقة كاملة، ثم هتف شوقي مصدوما:

- ما هذا؟!

تسائل حسام في ذهول أشد:

- بل كيف عرفوا؟!

لم يحر أحدهم جوابًا، غلفهم صمت ثقيل وهم يتطلعون إلى قوات الأمن التي تمركزت حول المركز الطبي في إحكام، في حين كانت قياداتهم تجرى بعض الاتصالات على نحو يوحي بخطورة الأمر، التفت حسام إلى مدربه قائلًا في قلق شديد:

- كيف عرفوا، من أخبرهم، هل هناك جاسوس بيننا؟!

هز المدرب رأسه نفيًا في قوة:

- مستحيل، هؤلاء أكثر تلامذتي إخلاصًا على الإطلاق
- كيف عرفوا إذًا؟!
حانت من المدرب التفاتة إلى أعلى يتفحص المباني المرتفعة حول المركز الطبي، كانت هناك امرأة تقف في شرفة في الطابق المقابل للفناء الخلفي تتطلع إلى ما يجري تحتها في اهتمام و فضول، ما إن لمحت حسام و جماعته يتطلعون إليها في غضب حتى دلفت مسرعة إلى الداخل في خوف وفزع، ضرب المدرب رأسه زاعقًا في غيظ:
- يا لي من غبي! كيف لم أنتبه إلى هذه الثغرة الخطيرة من قبل، لقد بحثت عن كل ثغرة من الممكن أن تعرقل خطتنا، لكني لم أرفع رأسي عاليًا و لو للحظة.
ثم أردف في مرارة:
- تصورت للحظة أنني قد أعددت خطة متقنة كالمحترفين، لكني وقعت في خطأ بسيط كالغر الساذج.
تسائل حسام وهو يتلفت حوله في قلق شديد بحثًا عن مخرج:
- المهم الآن، كيف سنخرج من هذا الوضع المعقد؟
التفت إليه المدرب قائلًا في ثقة مفاجئة:
- لا تقلق، سنخرج منها كالشعرة من العجين.
صاح حسام في يأس:
- كيف يا كابتن شوقي، لا أجد مخرجًا واحدًا و لا حتى ثقب إبرة.
زادت ابتسامة المدرب ثقة:
- قلت لا تقلق، هناك مخرج كنت قد أعددته في حالة الطوارئ، لكني لم أكن أتخيل حدوث هذا، وهو ما استفزني بشدة.
تسائل أيمن في لهفة:
- أين هو هذا المخرج؟
- سأخبركم لاحقًا، ولكن اذهب الآن يا حسام للاطمئنان على سير العملية الجراحية.
تطلع إليه حسام في شك واضح، فدفعه المدرب في حزم قائلًا:
- قلت لك لا تقلق يا حسام، صدقني هناك مخرج بالفعل أعددته منذ البداية.
ثم انتفخت أوداجه في فخر:
- هل تظنني انتخبت هذا المركز الطبي اعتباطًا؟ ثم أطلق ضحكة عالية عابثة و هو يردف في زهو:
- المكان، التوقيت، كل شيء اختير بعناية فائقة.

التمعت عينا حسام بالأمل، على الرغم من قلقه الشديد غادر المكان سريعًا ليطمئن على زوجته وابنه، تطلع عبر النافذة إلى الأطباء الذين يجرون العملية الجراحية، لم يدر بعد كم تبقى على الإنتهاء منها، ربما لن تسمح قوات الأمن في الخارج من إكمالها، تصاعد في نفسه غضب عنيف، لن يسمح لهم بإفساد العملية مهما حدث حتى لو تصدى لهم بالقوة، لم يتبقى إلا سويعات قليلة ثم يهربون إلى مكان مجهول، لكن مهلًا، هل صدق المدرب في وعده حقًا، أم كان يحاول طمأنته فقط؟ إنه حتى لم يفصح له عن خطة الهروب، ربما لا يوجد خطة من الأساس، ربما لم يدر بخلده قط أن يحدث هذا التغير العنيف المفاجئ! انقطعت أفكاره عندما صاح به أحد زملاءه وهو يقول:

- تعالى انظر يا حسام، مصيبة.

هرع حسام إلى الداخل لتطالعه نشرة الأخبار التي تذيع خبر اقتحام المركز الطبي المقام في المعادي و تمركز قوات الأمن حوله في استعداد تام، دارت رأس حسام بشدة، لقد أصبحوا إرهابيين الآن، وهذا في حد ذاته مصيبة، بل كارثة بكل المقاييس، عاد المدرب في لهفة ليشاهد نشرة الأخبار، سأله حسام في قلق:

- ما العمل الآن يا كابتن شوقي؟

أجابه في توتر:

- سنتحرك الآن، هيا

قال حسام في عناد غاضب:

- لن أترك نادية و يحيى وأهرب، إما أن نغادر معًا أو نبقى معًا.

صاح المدرب في إصرار:

- لن يمسهما أحد بأذى، فلن يربط أحد بينهم وبيننا.

حاول حسام الاعتراض، فصاح المدرب :

- لا يوجد لكن يا حسام سنترك...

قاطعه أحد رجاله:

- هناك أحد رجال الأمن يطلب مقابلة المسئول هنا.

تبادل حسام ومدربه النظرات القلقة الفزعة ثم قال حسام:

- حسنًا سأذهب إليه.

هبط حسام إلى البوابة الأمامية ليقابل رجل الأمن بقلب مرتجف، طالعه وجه عصام الصارم و جسده القوى، و تطلع عصام بدوره إلى الرجل ملثم الوجه قائلًا في لهجة صارمة:

- العقيد عصام المسئول الأول عن قوات الأمن هنا، وأود أن أنهي الأمر بأقل خسائر ممكنة.
رد عليه حسام في هدوء:
- لن توجد خسائر يا سيادة العقيد، اطمئن.
تجاهل عصام إجابته و هو يسأله في غضب:
- ما سبب اقتحامكم لهذا المركز الطبي، هل هي عملية إرهابية؟
أجابه حسام في توتر:
- لسنا إرهابيين، ولكن لدينا من الأسباب ما دفعنا إلى ذلك.
سأله عصام في حدة:
- ما هي هذه الأسباب التي تجعلكم تقتحمون مركزًا طبيًا؟ إن لم تكونوا إرهابيين فاسمحوا لي أن أتحقق بنفسي.

حاول حسام إخفاء قلقه وهو يتطلع إلى مدربه الذي عاد من غرفة العمليات في تلك اللحظة، أشار له المدرب أنه لم يتبق غير ساعتين فقط على انتهاء العملية، التفت حسام إلى عصام يسأله في حذر:
- وكيف ستتحقق من ذلك يا سيادة العقيد؟
أجابه العقيد في سرعة وكأنه كان ينتظر هذا السؤال:
- سأدخل بمفردي لأتأكد من حقيقة الوضع.
- وماذا لو رفضنا؟
رد العقيد في صرامة شديدة:
- سأعتبركم إرهابيين وعندئذ سنقتحم المركز لإنقاذ الرهان.

صمت حسام و راح يفكر في توتر، ما يزال هناك ساعتين على انتهاء العملية، ولو تم اقتحام المكان سيخسر كل شيء، وربما تنتهي حياة ابنه و زوجته، و هو لن يراهن على حياتهم أبدًا، سيسمح له بالدخول ليتأكد بنفسه من أنهم لا ينون شرًا
قطع العقيد صوت أفكاره قائلًا:
- لم تجيبني حتى الآن يا هذا، هل ستوافقون على دخولي أم لا؟
تبادل حسام و مدربه النظرات كعادتهم كلما حاصرتهم الشكوك و يحتاجون لتكاتف العقول لاتخاذ قرار ما، تكلم حسام عندما تأخرت عليه مشورة مدربه:
- حسنًا، ستدخل بمفردك و بدون أي أسلحة، مفهوم؟
انعقد حاجبا المدرب في شدة، في حين أجاب العقيد في ارتياح:
- حسنًا فعلت
قال حسام فى استسلام:

- اقترب اذًا.

سمح لهم العقيد بتفتيشه بدقة قبل أن يسمحوا له بالدخول ، كان الجميع في الداخل ملثمون لذا لم يتعرف على واحد منهم، لم يجد أي أثر للعنف على الحوائط أو الأرضيات، كانت عينه الخبيرة تفحص كل شيء، توقف العقيد عندما أشار له أحدهم إشارة صارمة بالتوقف، لم يسمحوا له بالصعود إلى الطابق الثالث، مما أثار حفيظته و تسائل، ما الذي يخفونه بالداخل و لا يريدونه أن يطلع عليه؟ ربما يكون هذا هو السبب الرئيسي لاقتحام المركز الطبي والسيطرة عليه! اقترب منه حسام يسأله في ترقب:

- هل اطمأننت يا سيادة العقيد؟
- بالتأكيد، و لكني أود أن أعرف من أنتم و ماذا تفعلون هنا؟

رد حسام في لهجة هادئة:

- نحن أناس بسطاء دفعتنا الظروف لفعل أشياء لم نكن نفكر مجرد التفكير في فعلها.

رد عصام بلهجة قاسية بالرغم من وقوفه وحيدًا بينهم دون سلاح:

- الضرورات لا تبيح المحظورات يا هذا، و الغاية لا تبرر الوسيلة مهما حدث، كل الجرائم يكون مبررها الضرورة والغاية والظروف وإلخ.

قال حسام بلهجة صادقة:

- صدقني يا سيادة العقيد، لن تستطيع أبدًا تخيل ما مررتُ به حتى أتخذ مثل هذا القرار الخطير، لم يكن القرار سهلًا على الإطلاق.

مط العقيد شفتيه علامة الاستنكار ثم قال في امتعاض:

- لا يمكنني بالتأكيد تخيل السبب الذي يدفع المرأ إلى احتلال مركز طبي كامل يكتظ بالمرضى والمصابين، و تعريض من به إلى الخطر، ثم تحدي فرقة كاملة من قوات الأمن.

أجابه حسام في صراحة مدهشة:

- لم نكن نعرف أن أمرنا سينكشف بهذه السرعة.

ضحك العقيد في سخرية ثم قال في شماتة:

- بالتأكيد، لأن المجرمين أمثالكم لا يمكنهم استيعاب أن ذكائهم المحدود لن يمكنهم من وضع خطة محكمة للفرار من القانون.

ثم استطرد العقيد في ظفر:

- و حكمة الله اقتضت أن يكشف أمركم بسرعة، هل استوعبتم ذلك الدرس جيدًا؟

قال حسام فى هدوء و هو يتطلع إلى ساعته:

- أنا لم أخالف القانون حتى أخشى العقوبة.
صاح العقيد عصام في تهكم مرير:
- استخدام القوة والبطش، ترويع الآمنين، تحدي السلطات، كل هذا ولم تخالف القانون، يا لك من مغرور!
- نحن لم نفعل شيئًا من ذلك يا سيادة العقيد، ربما نكون خالفنا بعض بنود القانون و لكننا لم نخالف القانون ولا روح القانون.
صاح عصام في تهكم لاذع:
- روح القانون! يبدو أنني أتكلم مع فيلسوف أيضًا.
حاول حسام الحفاظ على هدوئه مجيبًا:
- لا يحتاج الأمر لتكون فيلسوف لتدرك الأمر، ربما لا نستطيع تنفيذ القانون دائمًا، ولكننا نستطيع التمسك بروح القانون.
قال عصام في غيظ لم يحاول كتمانه:
- يبدو أنك جننت حقًا يا رجل وأخذت تهذي بكلام ليس له معنى.
حاول حسام إصباغ كلامه بالحكمة لعله يجد صدى عند غريمه:
- لا تحكم على أحد لم تقاسي ظروفه يا سيادة العقيد.
قال العقيد وهو يشد قامته في اعتداد:
- أنا أنفذ القانون
أجابه حسام في اعتداد مماثل:
- وأنا أتمسك بروح القانون.
تقلصت عضلات وجه عصام وصاح في صرامة:
- ما أنتم إلا إرهابيون تسعون لتكدير صفو الأمن العام، هذه هي خطتكم دون شك، لا يوجد هدف من وراء ما تفعلونه إلا تسليط الضوء عليكم؛ لنشر فكرة ما، أو لإظهار الدولة بمظهر العاجز.
ابتسم حسام لإدراكه محاولات العقيد المستمرة لمعرفة الهدف من وراء فعلتهم هذه، فقال محافظًا على هدوءه:
- لو كنا إرهابيين كما تقول لكنا على الأقل قتلنا أفراد أمن هذا المركز الطبي، ولكننا لسنا من كشفنا أنفسنا للإعلام.
قال العقيد في خبث:
- ربما كانت خدعة!
اكتفى حسام بهز كتفه يائسًا من محاولات اقناعه، استفز ذلك العقيد فقال في تحدي:
- إذا لم تكن إرهابيًا فأظهر وجهك لي إذًا.

أشار له المدرب الذي ظل صامتا منذ بداية حديثهم في حركة خفية علامة الرفض، فابتسم حسام قائلًا:

- و لماذا تريد رؤية وجهي أيها العقيد؟
- إذا لم تكن إرهابيًا أو مجرمًا فلن تخشى من إظهار وجهك لي.
- وهل ستتركني أرحل بعد معرفتك لي؟

صمت عصام قليلًا ثم قال بنبرة صارمة:

- كلا بالطبع، لن أترك مجرمًا يرتع في سعادة بعد تنفيذه جريمته.

قاطعه رنين هاتفه في تلك اللحظة، فالتقطه في حزم ليستمع إلى محدثه للحظات ثم قال في حزم:

- لا تتخذوا أي إجراء حتى أعود إليكم.

سأله حسام في هدوء مداريًا خوفه وحذره:

- هل يريدون اقتحام المبنى بالقوة؟

قال عصام متخذا وقفة صارمة:

- نعم، و لن يتم ذلك إلا تحت قيادتي المباشرة.

قالها و هو يغادر المكان في سرعة و دون أن يمنعه أحد.

****

لم يكد عصام يخرج من المبنى حتى اندفع عدد من رجاله نحوه لتأمينه، في حين قال مساعده مجدي في قلق:

- لقد خشيت عليك يا سيادة العقيد من هؤلاء الإرهابيين.

هز العقيد رأسه نفيًا قائلًا في ثقة:

- ليسوا إرهابيين يا مجدي.

ارتفع حاجبا مجدي متسائلًا في دهشة:

- ليسوا إرهابيين! إنهم يسيطرون على مركز طبي كبير بالقوة المسلحة.

هز رأسه نفيًا في هدوء:

- مجموعة من المجرمين يسعون لغرض ما.

تسائل مجدي في اعتراض:

- لماذا إذًا إعمال العنف وخلق أجواء من الخوف ضد الأبرياء؟ هل لديهم أهداف أيدلوجية أم هو مجرد حب السيطرة أم توصيل رسالة ما إلى وسائل الإعلام؟

رد العقيد عصام في ضيق:

- لست أدري بعد

- ما الذي ستفعله إذًا يا سيادة العقيد؟
أمر عصام بإحضار مكبر صوتي، ثم صاح من خلاله في صرامة:
- أنا العقيد عصام الجلاد، أطلب من المقتحمين في الداخل تسليم أنفسهم فورًا دون نقاش، أما في حالة عدم الإنصياع للأوامر فسيتم التعامل معهم كإرهابيين، وسيتم اقتحام المركز الطبي بمنتهى العنف والقوة، أكرر سيتم الاقتحام بمنتهى العنف إذا لم تستسلموا دون مقاومة، أمامكم خمس دقائق فقط، أرجو أن تستغلوها أفضل استغلال لمصلحتكم ولمصلحة من بالداخل.
بلغ الصوت الجهوري المركز الطبي بوضوح، انعقد حاجبا حسام بشدة، لم يتبقى له إلا ساعة تقريبًا وتنتهي العملية الجراحية، ثم يستطيع بعدها اصطحاب زوجته وابنه معه في رحلة الهروب من المكان، لكنهم لم يمهلوه إلا خمس دقائق فقط، فى تلك اللحظة اندفع المدرب ناحيته على الرغم من إرهاقه الواضح و هو يصيح:
- هل سمعت؟ خمس دقائق و يقتحمون المكان.
تسائل حسام في قلق شديد:
- ما العمل إذًا؟
- سنفر حالًا ودون إبطاء.
صاح حسام في عصبية:
- ماذا؟ لن أتركهم خلفي مهما كان الثمن.
هتف مدربه في عصبية:
_ لا يوجد وقت للانتظار، ما زال أمامهم أكثر من ساعة، ثم إن نقلهم بعد العملية مباشرة خطر على حياتهم، سنهرب الآن وندع الأطباء يكملون عملهم
صاح حسام في غضب:
- سيتوصلون إلى الصلة التي بيننا وبينهم عاجلًا أو آجلًا، ولا تنسى أننا منعنا العقيد من الصعود إلى الطابق الثالث، و سيعرف دون مجهود كبير أننا اقتحمنا المركز من أجل إجراء العملية فقط.
لم يكد ينهي عبارته الأخيرة حتى سمعوا صوت الهليكوبتر تهدر من أعلى السطح في وضوح، لم يستطع أحد زملاء حسام الملثمين الرابضين فوق السطح السيطرة على مشاعر الخوف التي هاجمته عندما رأى الهليوكوبتر فوق رأسه، رفع مسدسه الصوتي ليصوبه على الطائرة، صاح به زميله الآخر فى غضب:
- أيها الغبي ماذا تفعل؟

كانت طلقة الصوت بمثابة إعلان الحرب، ظن قائد الهليكوبتر أنه يصوب عليهم طلقاته فانحرف بها في حركة حادة، مالت الهليوكوبتر حتى كادت تصطدم بالمبنى المجاور لولا أن سيطر عليها قائدها بصعوبة بالغة، أطلق الشرطي المسلح رصاصاته كرد فعل غريزي، فصاح به عصام في صرامة غاضبة:

- ما الذي تفعله يا رجل؟ إنها مجرد رصاصة صوتية.

سمع حسام ومدربه صوت الطلقات التي تنطلق من الهليوكوبتر و تصطدم بالسطح في عنف، ثم فوجئا بالرجلين اللذان كانا مكلفين بمراقبة السطح يقفزان عبر درجات السلم هربًا من الطلقات التي تلاحقهما من داخل الهليوكوبتر بغزارة، صاح أحدهم في انفعال غاضب وهو يشير إلى الآخر:

- هو الذي صوب مسدسه على الطائرة مما دفعهم إلى مهاجمنا.

تجاهله المدرب وهو يمسك بيد حسام صائحًا:

- هيا يا رجل، لم يعد لدينا وقت، هيا.

انعقد حاجبا حسام حتى كادا يلتصقان وهو يقول في مرارة:

- أريد أن أوصي عليهما الأطباء وألا يخبروهما بانتمائهم لنا.

صاح المدرب في حماس:

- لقد فعلت ذلك بالفعل، إنهم أطباء شرفاء و لن يبلغوا عنا أو حتى يشيروا إلينا من بعيد.

تنهد حسام في ارتياح ثم انطلقوا يهبطون عبر درجات السلم بأقصى سرعة، وصلوا إلى الطابق الأرضي عندما تسائل في استغراب:

- أين المهرب يا كابتن شوقي؟!
- سترى الآن يا حسام، اصبر.

دلفوا إلى غرفة التنظيف في الطابق الأرضي، أشار الكابتن إلى رجاله ليزيحوا خزانة قديمة كاشفًا عن فجوة كبيرة تسمح بمرور اثنين بالغين في وقت واحد، كانت خطة بسيطة وفعالة، تسائل حسام في إعجاب:

- متى صنعتم هذه الفجوة؟

قال المدرب و هو يشير له أن يسرع بالمرور إلى الجهة الثانية:

- بالأمس فقط

عبروا الفجوة ثم أعادوا الخزانة إلى وضعها الأول بعد أن انتقلوا جميعًا إلى الجانب الثاني، وجد حسام نفسه بغتة في صالة واسعة لشقة في الطابق الأرضي مضاءة بضوء خافت، عبروا الصالة الواسعة و المدرب يقول:

- لقد استأجرت هذا المنزل لأستطيع صنع الفجوة التي عبرنا منها منذ قليل.

تسائل حسام مستفهمًا:

- وماذا لو لم تستطيعوا استئجار هذا المنزل.

مط المدرب شفتيه قائلًا في لا مبالاة:

- كنا سنبحث عن خطة أخرى أو حتى مركز طبي آخر. ثم التفت إلى حسام و أكمل في ثقة مشيرًا إلى رأسه:
- أنا لا أسير دون خطة؛ هذا ما علمته لي الأيام، لا بد أن تضع كل شيء في الحسبان ولا تترك شيئًا للصدفة. تمتم حسام وهو يشعر بإعجاب شديد تجاهه:
- يا لك من ثعلب ماكر!

وصلوا إلى باب المنزل الرئيسي المواجه لشارع جانبي بعيد عن واجهة المركز الطبي و تكتل قوات الأمن هناك، كان قد عمد أحد رجاله إلى تحطيم لمبات الإنارة ليصير الشارع مظلمًا بالكامل، و كانت السيارات الثلاثة في انتظارهم، ركبوها جميعًا ثم راحت تسير بهم في هدوء تام ودون إشعال مصابيحها، تاركين قوات الأمن تقتحم المركز الطبي قبيل الفجر بلحظات ليجدوه فارغًا إلا من عدد من المرضى وفريق تمريض وطبيبي تخدير وجراحة؛ حيث كان الأخير على وشك الإنتهاء من عملية جراحية، وفي ما عدا ذلك كان المبنى خاليًا تمامًا.

****

صعد العقيد عصام في سلم مبنى وزراة الداخلية؛ حيثُ تم استدعائه بعد يوم واحد من عملية المركز الطبي الفاشلة، طوقه شعور بالرهبة والقلق لهذا الإستدعاء بالتحديد، لم يكن بالطبع أول استدعاء له، إلا أن هذه المرة كانت تختلف اختلافًا جذريًا؛ فلقد تم اعتبار عملية عصام الأخيرة رسميًا فاشلة، بعد هروب منفذي العملية بطريقة ماكرة، كان يشعر بغضب عنيف لم يختبر مثله في حياته كلها، يدرك أن الأمر لن يمر دون عقوبة، فقد بدت قوات الشرطة في أعين الشعب ألعوبة يتنادر عليها الناس.

في هذه الأثناء كانت زوجته تتابع وسائل الإعلام التي تتحدث عن منفذي العملية على المركز الطبي، و عن ذكائهم الشديد في تنفيذ خطة الهروب بطريقة بسيطة وماكرة، وعدم كشف الداخلية عن مخططهم الحقيقي حتى الآن، كانت تبكي منذ استدعوا زوجها الذي لم يذق طعم النوم ليلة أمس على الرغم من إرهاقه الشديد، خفق قلبها وهي تتخيل ما يعدونه لزوجها

من عقاب، حاولت نفض الفكرة عن رأسها وأن الأمر لن يعدو كونه مجرد عتاب من الرؤساء.
وصل عصام إلى مكتب مساعد وزير الداخلية، حاول التحكم بأعصابه وإخفاء توتره، لكنه عجز عن منع خفقان قلبه العنيف، فرك عينيه ليبعد عنهما أثر احتياجهما الشديد للنوم، توقف لحظات أمام الباب ثم حسم أمره و طرق الباب في هدوء، ثم دلف إلى الداخل مؤديًا التحية، لم يرفع مساعد وزير الداخلية عينيه عن الملف الذي كان يطالعه لمدة دقيقة كاملة، كانت بالنسبة لعصام سنة كاملة، ثم أزاح اللواء الملف جانبًا، و رفع عينيه في بطء يحدق في وجه عصام بشيء من الغضب، دعاه للجلوس و هو يطرق بأصابعه المكتب في توتر و عصبية، ثم خاطب عصام في صرامة:

- هل تدرك ما نحن فيه من كارثة؟

خفض عصام عينيه في خجل لم يعتده في حياته قط؛ كان يشعر أضعاف ما يشعر به رئيسه من غضب و سخط و حنق، لكنه كان يشعر بحيرة مضاعفة أيضًا، كيف خدعوه بهذه البساطة؟
قطع رئيسه أفكاره متسائلًا في غضب و كأنه يسمع صوت أفكاره الذاهلة:

- كيف خدعوك بهذه البساطة، كيف و أنت أحد أفضل رجالنا في الجهاز كله؟ لقد كنا وزير الداخلية و أنا نفكر في اختيارك بعد سنوات قليلة من الآن لتكون أحد مساعديه لكفائتك، لكن الآن...

لم يكمل عبارته، ولم يكن عصام بحاجة إلى تكملة، لقد خسر بلا شك فرصته في الترقية التي كان يحلم بها، شعر بنفسه تتقازم بعد أن كان يرى نفسه عملاقًا ماردًا، كانت الأفكار تملأ رأسه بوخزات أليمة قاسية، و شعور بالخزي يملأ جنبات روحه، قاطع رئيسه أفكاره مرة أخرى قائلًا في مرارة:

- ليت الأمر اقتصر على هذا.

سقط قلب عصام من السماء إلى الأرض في عنف و هو يحملق في شفتي رئيسه متوجسا، تابع رئيسه في حنق:

- لقد صدر الأمر رسميًا بخلع ترقيتك الأخيرة، و التوقف لمدة أسبوعين عن مباشرة العمل لحين الانتهاء من التحقيقات.

صاح عصام في فزع:

- تحقيقات!

أشاح مساعد الوزير بوجهه قائلا في حزن:

- الأمر ليس بيدي كما تعلم، ما باليد حيلة

قال عصام في حدة حاول إخفائها فلم يستطع:

- و لكنني فوق مستوى الشبهات كما تعلم يا سيادة اللواء.

أجابه اللواء في صرامة:

- أنت تعلم أن الموقف غير مستقر، والإعلام له دور في إثارة...

قاطعه عصام في مرارة:

- و لا بد من كبش فداء، أليس كذلك؟

صمت رئيسه و هو يتطلع إلى عينيه مباشرة ثم تمتم :

- لا تنسى أنك المسئول الأول عن ما حدث، و لا بد من معاقبة أحد ما.

هتف عصام في حدة و اعتراض:

- أما يكفي نزع ترقيتى و توقفي عن العمل، ماذا يريدون غير ذلك؟

صاح رئيسه غاضبا :

- التزم حدودك يا عصام، أنسيت أنك تخاطب رئيسك المباشر؟

جاهد عصام ليتحكم في أعصابه الثائرة، قال متداركًا خطأه:

- آسف للغاية يا سيادة اللواء.

صمت مساعد الوزير لحظات ثم قال في هدوء:

- أعلم أن أعصابك متوترة، لكن لا تخشى شيئًا؛ فلن يحدث أسوأ مما حدث، ستجري التحقيقات كما أخبرتك، لكنها مجرد خطوة لإضاعة الوقت لا أكثر، مجرد فقاعات لتلهي الرأي العام حتى يهدأ، سينسى الناس بعدها قصتك و ينشغل الإعلام بموضوع آخر، ثم تعود بعدها لعملك.

ثم التقط اللواء ظرفًا من أمامه ناوله لعصام قائلًا في لهجة آمرة:

- اطلع على ما به من أوراق، ستفيدك في التحقيقات التي ستجرى خلال يومين على الأكثر.

غمغم عصام بسخرية و عصبية:

- بهذه السرعة؟!

مط اللواء شفتيه ثم قال:

- يريدون تهدئة الرأي العام لا أكثر.

قال عصام فى مرارة:

- وأنا كبش الفداء

هز اللواء رأسه نفيًا:

- لن يكون هناك كبش فداء.

ألقى عصام نظرة سريعة على الظرف الممتلئ، و على تاريخ الاستلام المدون عليه والذي أشار إلى يوم التاسع عشر من شهر ديسمبر، سنة ألفين وعشرة، ثم قال :

- حسنًا يا سيادة اللواء سأطلع عليه الليلة.

شبك اللواء بين أصابعه و هو يخاطب عصام في حزم:

- اخرج بنا من هذا المأزق بأي شكل يا عصام، لا تنسى أن عيد الشرطة على الأبواب، أعداؤنا في الداخل متربصون بنا، ينتظرون الوقوع في أي خطأ حتى ينصبوا لنا المشانق.

هز عصام رأسه متفهمًا ثم غادر المكتب في الحال، لم يعد يمتلئ عقله بالأفكار المزدحمة الملتهبة المتحسرة، لن تفيد الحسرة و الندامة في تغيير الواقع، لم يعد يملأ قلبه و روحه سوى شيء واحد، الانتقام، عزائه الوحيد أنه لم يفصل من عمله، سيمكث في بيته أسبوعين كالعاطلين حتى تنتهي فترة العقوبة، ثم سيسوي حسابه كاملًا مع هؤلاء المجرمين.

****

وضع هشام الملف الذي أعطاه إياه ذلك الشاب في المقهى جانبًا، فرك عينيه بقوة بعد ذلك المجهود الذي بذله في قراءة الرواية دون أن يرفع بصره عنها لحظة واحدة، لم يصدق أحداث تلك الرواية المثيرة، إنه لا يعرف ماهية هؤلاء القوم، و لا ما هي أهدافهم الحقيقية، لذا أقدم على خطوة ضرورية في سبيل حماية أسرته فلا أحد يدري ما الذي قد يحصل لهم في المستقبل، فرك عينيه مرة أخرى و هو يتطلع إلى الساعة التي أشارت إلى الثالثة و النصف صباحًا، قام من مقعده الضخم بصعوبة، اتجه إلى فراشه ثم مدد جسده عليه في حذر حتى لا يوقظ زوجته النائمة، ثم أغمض عينيه و ذهنه يفكر في توجس و ترقب : كيف ستكون الأيام القادمة؟

الفصل الثانى

لم تكن هذه الأيام بالنسبة له كسائر الأيام التي مرت عليه من قبل، مهما كانت صعبة و عسيرة، كانت حياته حافلة بالأخطار التي كادت تودي به مرات عديدة، لكنه لم يحن جبهة، و لم يسقط راية، و لم يفر من معركة، كان مثار إعجاب رؤسائه قبل زملائه، بل ومحط حسد بعضهم أيضًا، ثم كانت النتيجة بعد هذا العمر الحافل أن يجلس في البيت كالعجائز، لم

يبغض في حياته شيئًا كالمكوث في البيت، و مشاهدة التلفاز، و التحدث ليل نهار كالفارغين. أبعد كل ما قضاه في خدمة و طنه و تحقيق العدالة يكون جزاؤه أن تنزع ترقيته و يقدم للتحقيق! إنها مهزلة بكل المقاييس، اشتعلت في أعماقه نيران الغضب و الحنق و السخط، لقد أصبح مثار سخرية الشامتين الذين لم يحلموا بمثل هذه الهفوة منه قط، انفجر بركان الغيظ على هؤلاء الأوغاد الذين وضعوه في هذا الموقف العسير، كان وجهه المحتقن ينبئ عما يعتمل في داخله من مشاعر متأججة وغضب عنيف، تاريخه كله سيضيع هباءا منثورا، يكفيه رؤية وجهه على شاشة التلفاز و بجواره عبارة «الشرطي المسئول عن هروب الإرهابيين بطريقة أشبه بما يحدث في الأفلام، وقد تقدم للتحقيق أمام لجنة التحقيقات للعثور على ملابسات الهروب الهزلية، و هل له يد في هروب هؤلاء الإرهابيين؟» يا للسخرية! لم يكتفوا بعقابه، بل وضعوه في خانة المشتبه بهم أيضًا، تضاعف غضبه عشر مرات على الأقل، حتى أنه صاح بغضب و ثورة ليخفف عن كاهله هذا الحمل الثقيل كالجبل. ارتعشت زوجته عندما سمعت صيحته الهادرة الغاضبة، احتضنت ابنها الصغير محاولة أن تلهيه عن سماع صيحات والده الغاضبة، كانت تعلم كم الغضب الذي يجرى في عروقه في تلك اللحظة، إنها حتى لم تفتح التلفاز منذ الحادث البغيض حتى لا تؤذي مشاعره، اكتفت بالصمت، تعلم أنه لا يريد سماع مواساة و لا تعزية؛ حيثُ يرى دائما أن المواساة و التعزية للضعفاء و المهزومين، و هو ليس أحدهم بالتأكيد.

لم يقرب الطعام خلال اليومين الماضيين إلا شذرًا، طعام يكفيه للعيش بالكاد، حتى زاغت عيناه و شحب وجهه، صار كالليث الغاضب، لن يهنأ له جفن حتى يسترد كرامته المسلوبة، و يعاقب الخارجين على القانون على جريمتهم البشعة، لم يكن أنانيًا من قبل، إلا أنه بات لا يفكر إلا في كرامته ورد اعتباره، لا يهمه ما سينحدر إليه، إنه يدرك أنه لا ينبغي على ضابط الشرطة أن يتعامل مع الأمور من منطلق شخصي، و أن دوافعه دائمًا ينبغي أن تتبع المصلحة العامة، لكنه سيهدم القاعدة هذه المرة، فقد جرح في كرامته، أعز ما يملك.

انطلق رنين هاتفه فجأة، فأجاب في لهفة و اهتمام :

- هات ما لديك يا إبراهيم.

استمع إلى محدثه في اهتمام بالغ حتى انتهى من حديثه ثم أغلق هاتفه في ارتياح، لقد وصل إلى معلومات مهمة عن منفذي العملية، لم يرى وجوههم و لكنه استنبط بذكاء أنهم كانوا يحمون غرفة العمليات في الطابق الثالث،

ليس معنى هروبهم أنهم لا ينتمون لهم، ربما ظنوا أنه لن يستطيع الربط بينهم، لكنه ليس بهذا الغباء، ثم إن من تحدث معه كان يضع ضمادات على وجهه أسفل اللثام، و كان من السهل بعدها أن يتعرف عليه، مجرد النظر إلى وجه والد ذلك الطفل الذي أجريت له العملية، و على الضمادات التي كانت تغطي جزءًا من وجهه، جعله يعرف المنفذ الرئيسي للعملية على الفور، خطأ بسيط وقع فيه ذلك الرجل سيجعله يدفع حياته ثمنًا لها، هذا غير الخطأ الغبي الآخر الذي يعتبره أشد غباءً من سابقه و هو أنه سمح له بالتحدث معه مباشرة، و لم يكن من العسير التعرف عليه بسهولة، حيثُ ميز صوت حسام و وجهه الذي يغطي جانبه الأيمن الضمادات حينما راقبه من خلف الباب الموارب في الغرفة المجاورة لحجرة النيابة، حين طلبوا من حسام الحضور لأخذ أقواله بصفته والد الطفل الذي كانت تجرى له العملية في نفس وقت حدوث الإقتحام، يبدو الأمر خياليًا حقًا عندما يستنتج أن كل ما حدث من أجل إجراء عملية جراحية لابنه، استخدام مسدسات صوت و عدم قتلهم لأي من أفراد أمن المركز الطبي يؤكد أنهم ليسوا إرهابيين، لكنهم ما زالوا في نظره مجرمين يستحقون العقوبة، حتى لو كان كل ما حدث من أجل عملية جراحية لطفل صغير، لأول مرة منذ عملية الإ قتحام وفشله في مهمته يضع غضبه جانبًا و يفكر بتعقل، لقد تعلم ألا يستبعد أي احتمال مهما كان تافهًا، ماذا لو كانت هناك خدعة ما؟

عصر مخه بأقصى ما يستطيع، حاول مراجعة كل ما حدث في الليلة المشؤمة، لن يستبعد أي حدث، أية كلمة، أية إشارة، لن تفوته شاردة و لا واردة، لن يقع في أي خطأ آخر، أي خطأ سيصدر منه قد يكون سببًا في نهايته و مسح تاريخه الطويل بممحاة رخيصة، كأن لم يكن له وجود من قبل، ما أهون ارتكاب الأخطاء و ما أسوأ عواقبها، سيستغل المعلومات التي وصل إليها لصالحه؛ لقد أصبحت سمعته على المحك، و لن يسمح بهزيمته مرة أخرى، أبدا.

****

لا يزال نادية ويحي يمكثان في المركز الطبي في وحدة العناية المركزة، لفترة تتراوح من خمسة إلى عشرة أيام؛ حيث سيراقب الطبيب المختص وطاقم التمريض حالتهم لرصد مؤشرات المضاعفات، كما سيختبرون وظائف الكبد بشكل متكرر للاطمئنان على حالة الكبد لكل منهما، اعتاد حسام الذهاب للاطمئنان عليهما حتى لا يثير الشك تجاهه، بينما تجري إدارة المركز الطبي تحقيقاتها لمعرفة كيف أجريت هذه العملية دون

علمها، أقسم طبيب الجراحة أنه تلقى تعليمات مكتوبة من أحد المديرين بالموافقة على إجراء العملية، ووافقه على ذلك طبيب التخدير الذي أراد أن يبعد الشبهة عنهما بأي وسيلة، ثم أخبر الطبيبان إدارة المركز الطبي أن عملية الإقتحام تسببت في ضياع الأوراق مع أشياء أخرى، لم تقتنع إدارة المركز الطبي بهذا الكلام بالطبع، إلا أنها لم تتخذ أي إجراء من شأنه إثارة البلبلة دون أن يكون لديها دليلًا دامغًا، فتركت الأمر للفريق الجنائي الذي يجري التحقيقات منذ ليلة الحادثة.

****

جلس حسام على كرسي خشبي في غرفته الرياضية يفكر في ما آلت إليه الأمور، القضية أصبحت قضية رأي عام، الكل يبحث عن السبب الحقيقي في اقتحام المركز الطبي، الإعلام يتسائل ليل نهار ما الذي استفاده هؤلاء الإرهابيون من وجودهم هناك؟ هل هو مجرد جذب الرأي العام لشيء ما يعدونه في المستقبل؟ أم هي قضية سياسية في المقام الأول؟ أم أن ورائهم غرض آخر لم يستنتجه أحد بعد؟ ليس للشرطة والإعلام حديثًا إلا عملية الإقتحام، باتوا يشبهون عملية الهروب بما يحدث في أفلام الحركة الأمريكية، لو تدخل العقيد عصام في التحقيقات ستكون نهايتهم الأكيدة؛ فهو ربما يربط بين عدم السماح له بالصعود إلى الطابق الثالث وبين إجراء العملية الجراحية في نفس توقيت الاقتحام، عملية مرتفعة التكلفة تمت بدون أوراق رسمية، وهو بالتأكيد لاحظ استخدامهم لمسدسات صوت، و الأمر لن يحتاج إلى عقل جبار للربط بينهما، لكنهم غادروا المكان سريعًا وتركوا خلفهم نادية ويحي، هل من الممكن أن يبعد هذا عنهم شبهة الصلة؟ رجل كعصام لن يخدعه أمر كهذا؛ لأنه يعلم أنهم أجبروا على المغادرة قبل الوقوع في أيدي قوات الأمن، ضف على ذلك ما يمتلئ به قلبه من بغض وكراهية كفيلين بتحويله إلى آلة انتقام لن يثنيها شيء عن الإيقاع بهم جميعًا. مهلًا، هذا معناه أنه ليس لديه دليل حتى الآن، لا يوجد كاميرات مراقبة التقطتهم وهم ينفذون عملية الاقتحام بعد أن أبطلوا عملها كلها، لا توجد بصمة واحدة ولا شاهدًا واحدًا، وتلك المرأة التي أخبرت الشرطة عن عملية الاقتحام لم يكن بإمكانها رؤية الفراش الطبي من شقتها، ينبغي إذًا أن يركز على ما سيأتي، كان يتمنى لو انتهى كل شيء، عزاؤه الوحيد أن يحي ونادية بدءا يتماثلان للشفاء وهذا أثلج صدره كثيرًا، كان قد بدأ يظن أن الأيام السيئة قد ولت أخيرًا بمرارتها وآلامها وأن الأيام القادمة ستكون بمثابة مكافئة له على صبره وثباته، لكن

للأسف لم يدم هذا الشعور طويلًا، ها هما شعورا الخوف والقلق يعودان بأشد ما يكون، لو قبض على أفراد الفريق سيودعون في السجن مدة طويلة للغاية بتهمة الإرهاب، الإعدام أرحم بكثير مما سيلقونه هناك، ما ذنب الكابتن العجوز شوقي، ما ذنب هؤلاء الشباب، ما ذنب الفريق الطبي؟
ذنبهم الوحيد أنهم ساعدوه في محنته وأنقذوا ابنه من الموت المحقق!
تضاخم عنده إحساس الغضب، سأل نفسه سؤالًا بليغًا:

- أكل هذا لأنني ببساطة لم أملك المال، ما الذي كان يجب علي أن أفعله، هل أقف أشاهد ابني يحتضر لأنني فقير معدم؟

عاد له شعوره المتأصل بالعناد؛ إنه لم يفعل أي خطأ، لم يقتل، لم يسرق، لم يؤذ أحدًا، فما هي إذًا جريمته؟
ثم تناول هاتفه ليجرى اتصالًا بمدربه.

****

الثالث من شهر يناير من عام ألفين وإحدى عشر

شرع هشام في إنهاء كتابة الرواية التي أدلى إليه بتفاصيلها ذلك الشاب المجهول، والتي انتهت أحداثها عند هروبهم من المركز الطبي من بين أصابع العقيد عصام كالزئبق، كان قد مضى أسبوع منذ قابل ذلك الشاب الذي طلب منه كتابة تلك الأحداث بأسلوب أدبي، وبقي على إنهاء كتابتها أسبوعًا آخر ثم يعرضها على دار نشر كبيرة ستوافق على نشرها على الفور؛ حيث أنه على علاقة جيدة بمديرها منذ كانا زملاء دراسة، لا يعلم بالتحديد ما الفائدة التي ستعود عليهم، لكنه يعلم النفع الذي سيعود عليه بالتأكيد، مبلغًا ماليًا وكتابة رواية مميزة قد تدخله إلى عالم الأدب من باب واسع. كان هذا ما يحاول إقناع نفسه به إلا أنه في حقيقة الأمر كان مجبرًا على هذا؛ خوفه على عائلته دفعه دفعًا لكتابة الرواية دون نقاش، نجح ذلك الشاب في غرس بذور الخوف عميقًا في أرض قلبه الضعيفة المتشققة، إنه لا يملك أية معلومات عن هذا الشاب، وهذا يجعل الأخير بلا ثغرات، ويجعله هو كالأعمى الذي يتخبط في الجدران دون مرشد، لهذا اضطر للموافقة والإذعان بالرغم من أنه لم يكن متأكدًا من حقيقة أحداثه، وهل أبطالها بالفعل بريئون تمامًا كما قص عليه الشاب، أم أن هناك تفاصيل أخرى لم يروها بعد وحقائق أخفاها عمدًا؟! لو صدقت أحداث الرواية فإن بطلها لا ينبغي أن يحاكم على الإطلاق، بل يستحق أن يشيدوا له تمثالًا ويضعوه في مكان مميز في ميدان رئيسي كبير؛ ليكون مثالًا للأب الشجاع

الذي جازف بكل شيء للحفاظ على حياة ابنه. لكن من قال أن كل شيء يسير بالعدل والميزان! إن خبرته وتجاربه تدلانه على العكس، فكم من بريء مكث في السجن لسنوات وسنوات دون وجه حق، وكم من مظلوم أعدم لجريمة لم يرتكبها؟ عمله كصحفي جعله يطلع على أمور لم يكن يتخيل وجودها في هذا العالم، وكم صدق المثل القائل «ياما في الحبس مظاليم» للدلالة على عدم وجود العدل في كل وقت، ربما لهذا طلبوا منه كتابة الرواية بأحداثها ليظهروا الحقيقة إذا ما سائت الأمور؟! عدم معرفته الحقيقة من الزيف يسبب له شعورًا بالعجز، ما يشعره بالراحة بعض الشيء هو أنه سيكتب رواية خيالية لا تمت للواقع بصلة، هذا ما يريح ضميره ويسكن خوفه واضطرابه الذي لا ينقطع، زفر في ضيق شديد، حاول طرد الأفكار التي أصبحت تحتل فكره كله تقريبًا، و عندما فشل انكب على الرواية يكتب من جديد.

****

انطلق حسام إلى بيت مدربه كما اتفق مع الجميع، من أجل الاتفاق على ما سيقولونه أمام لجنة التحقيقات، حتى لا تحدث أخطاء تؤدي إلى كشف أمرهم بسهولة، دلف إلى الداخل ليجدهم في انتظاره، هنأه الكل بنجاح العملية، قال حسام في امتنان صادق:

- لن أستطيع مهما حاولت أن أصف شعوري نحوكم لما فعلتموه من أجل ابني وزوجتي.

كان الكابتن شوقي أول من تحدث قائلًا:

- نحن يا بني لم نفعل إلا الواجب تجاه طفل بريء، كتب عليه أن يصاب بمرض خطير، عجزنا جميعًا عن دفعه بالأساليب العادية، لذا كان واجب علينا أن ندفع عنه على قدر استطاعتنا.

قال طبيب الجراحة:

- ما فعلناه كان اضطرارًا وليس اختيارًا، لم يكن أمامنا شيء آخر سوى إنقاذ طفلك فلا داعي للشكر.

تمالك حسام مشاعره الفياضة بصعوبة، تدخل المدرب متحدثًا في حزم:

- حسنًا دعونا يا سادة مما مضى ولنركز على ما سيأتي، كل من شارك في إجراء العملية الجراحية سيستجوب ولا شك، لذا ينبغي أن نضع النقاط على الحروف؛ فلو حدث تضارب سيقضي علينا جميعا.

قال فهمي طبيب التخدير في حماس:

- لقد اتفقنا على ما سنقوله للجنة التحقيقات.

قال حسام في لهفة:

- هات ما لديك.
- اتفقنا على أننا أجرينا العملية طبقًا للأوراق المعتمدة التي جاء فيها نصًا أنه تجرى العملية في يوم الإثنين، بتاريخ عشرين من شهر ديسمبر من سنة ألفين وعشرة، وأنه بناءً على هذا قمنا بإجراء العملية، ولكنها تأخرت عن ميعادها الأصلى عدة ساعات لظروف متعلقة بالحالة، وعندما حدث الإقتحام سرقت عدة أشياء من بينها أوراق العملية، وعندما يسألوننا من الذي أعطاكم الإذن بإجراء العملية، سنبلغهم بأنه الدكنور توفيق عباس بالتحديد.

سأل المدرب في استغراب:

- من هو الدكتور توفيق عباس هذا؟
- إنه طبيب جراحة في المركز الطبي نفسه.
- ولماذا هو بالتحديد؟
- تبادل فهمى ووائل النظرات قبل أن يجيب الأول في خبث:
- مجرد تصفية حسابات ليس أكثر.

تدخل حسام معترضًا في غضب:

- لا أحب تلك الأساليب الإجرامية، ما ذنب هذا الرجل لتؤذوه على هذا النحو؟

أطلق وائل ضحكة عالية بدت غريبة في تلك الجلسة قبل أن يقول:

- على رسلك يا رجل، هذا الذي نتحدث عنه شيطان، يمتص الأموال من الناس دون وجه حق، ولا تعرف الرحمة طريقًا إلى قلبه، ثم إنه متورطًا في بعض عمليات سرقة الأعضاء أيضا.

وجم حسام قليلًا ثم تسائل:

- إذًا فقد اتفقتم على كل شيء، حسنًا، أما من ناحيتي فأنا ما زلت أشعر بالخوف والخاطر.

تطلعوا إليه وهم يتسائلون في قلق: هل ما زال الخطر قائمًا بالفعل أم أنه رحل دون عودة؟

****

اتجه حسام إلى المركز الطبي في الساعة العاشرة صباحًا لرؤية نادية ويحيى بعد أن أفاقوا من غيبوبتهم، يكفيه أن يرى ابنه بعد أن تعافى من مرضه، وزوجته التي نجت من خطر تبرعها بجزأ من كبدها، و هذا يكفيه الآن.

صعد حسام على درجات السلم وقلبه ينقبض انقباضًا مؤلمًا، لا يدري لما اعترته ذلك الشعور في تلك اللحظة، لكنه تجاهله مؤقتًا؛ فقد أصبح على مقربة من أحب المخلوقات إلى قلبه، قطع حسام الممر الطويل في خطوات سريعة واسعة، ثم انحرف يسارًا و... توقف فجأة على الرغم منه وخفق قلبه في عنف؛ حيث رأى المقدم عصام يقف أمام الغرفة التي ترقد فيها نادية ويحي يتطلع إليهم في صمت مهيب، كأنه ينتظر حدوث أمر ما، بدا لحسام وكأن الزمن قد توقف بغتة، لكن هذا المشهد الساكن اهتز بغتة، كأنها صفحة ماء ساكن ألقى أحدهم فيها حجرًا ثقيلًا فتوتر سطحه توترت عنيفا، عندما حانت التفاتة من عصام إلى حيث يقف غريمه، لم يدر حسام كيف شعر به غريمه، كأن شيئًا ما دفعه دفعًا لذلك، التقت عيناهما في تحد، كأن روحيهما قد اقتتلتا سابقًا في عالم آخر، انعقد حاجبا عصام في غضب حاول كتمانه دون جدوى، أدرك حسام عندئذ انكشاف أمره إلا أنه لم يحرك ساكنًا، التفت إليه عصام بكليته في تحد واضح كأنما يخبره بانفضاح أمره وانكشاف خبيئته، لم يجد حسام بدًا من أن يتجه إليه في خطوات ثابتة، كانت كل خطوة يخطوها حسام في اتجاه غريمه تزيد من انعقاد حاجبا الأخير وتوتر عضلاته، وبدا كمن يترقب للانقضاض على فريسته، شعر حسام بلهيب نظراته المتوثبة، إلا أنه حافظ على ثباته و هدوءه حتى وقف أمامه قائلًا:

- هل تبحث عن أحد ما أيها السيد؟

اشتعلت عينا عصام بنظرة صارمة للغاية وقال:

- العقيد عصام من المباحث العامة، العجيب أنك لا تعرفني على الرغم من أنني أصبحت أشهر من نار على علم!

قال حسام في هدوء:

- لا عجب في الأمر، كل ما هنالك أن الظروف لم تسمح لي بمشاهدة التلفاز في الأيام القليلة الماضية، كان لدى شيء أكثر أهمية لم تابعته.

ابتسم عصام فى سخرية مقيتة وهو يقول:

- أي أمر هذا الذي تعده أكثر أهمية من فشل عقيد في القبض على شرذمة من المجرمين، وتركهم يهربون من بين يديه كالزئبق.

لم تعجب حسام هذه النبرة العدائية فأجابه في برود:

- لكل جواد كبوة يا سيادة العقيد.

نحجت لهجة حسام في استفزازه بالفعل، فرد في غضب مكتوم:

- مقدم يا رجل، آه، نسيت أنك لم تتابع ما حدث في الأيام الأخيرة، هذا خطأي، اغفر لي.

شعر حسام أن الأمور قد تتطور في أي لحظة، وإذا حدث هذا فلن يكون في مصلحته على الإطلاق فقال:

- يؤسفني أن انصرف لأطمئن على زوجتي وولدي.

تابعه عصام ببصره في صمت عنيف ثم قال فجأة:

- جرأة كبيرة منك الحضور إلى هنا يا سيد حسام.

توقف حسام بغتة على بعد سنتيمترات من باب الغرفة وهو يلتفت إليه متسائلًا في استغراب مدروس:

- ماذا تعني بكلامك هذا يا سيادة المقدم؟

تأمله عصام مليًا ثم قال وهو يبتسم في غيظ:

- يبدو أن الصراع معك سيكون له مذاقًا خاصًا للغاية.

ظل حسام صامتًا للحظات ثم ابتسم بدوره في هدوء قائلًا:

- صدقني لا أكن لك أي ضغينة على الإطلاق.

أنهى عبارته ثم دلف في هدوء وأغلق الباب خلفه، كان يعلم أن الأمور ستتخذ وضعًا مغايرًا لما كان يأمله، لكنه ألقى كل هذا خلف ظهره ثم اقترب من فراش ابنه النائم كالملاك متطلعًا إليه في حب وتعاطف، ثم اتجه إلى فراش زوجته النائمة أيضا قائلًا:

- كم تحملتي الكثير يا زوجتي العزيزة، أعدك أنك لن ترغمي على فعل شيء آخر.

قبلها بين عينيها ثم انحنى ناحية يحيى يقبله هو الآخر، خرج من غرفة العناية المركزة بعد أن أغلق بابها في إحكام، استقبله عصام بسؤاله قائلًا:

- ترى كم من الوقت سيمضي حتى تصبح زوجتك قادرة على إجابة أسألتي؟

حدجه حسام ببصره في صرامة غاضبة ثم قال :

- إذا أردت أن تسأل أحدًا فاسألني أنا، ليس لها شأن بما تبحث عنه.

ابتسم عصام في هدوء واثق وهو يسأله:

- بأي صفة أسألك؟
- لا تعنيني الصفة، ولكن لا تقحمها في أمورك هذه.

قال عصام فى صرامة:

- أنت من أقحمتها منذ البداية، ولا بد أن تتحمل هي مسئولية ذلك.

صاح حسام في حدة دون أن يهتم لخطورة ذلك:

- قلت لك لا تقحمها في هذا الأمر ولا تجعلها طرفًا في لعبتك، أنا أعلم أنك تريد جعلها وسيلة ضغط لكنك لن تنجح في هذا.

قال عصام في سخرية شامتة وقد أدرك نقطة ضعفه:

- وما الذي قد ينسب إليها غير بعض التهم البسيطة.

انعقد حاجبا حسام في غضب دون أن ينبس ببنت شفة، فاستطرد عصام:

- تزييف أوراق رسمية، المشاركة في عمل إرهابي.

غمغم حسام في صوت خافت مشحون بالغضب:

- أنت تعلم جيدًا أنها مجرد أم سعت لإنقاذ ابنها من الموت المحترم.

ازدادت صرامة عصام كثيرًا وهو يقول:

- لا تحاول أن تضفي الشرعية على ما فعلت، فلو نفيت عن نفسك الصفة الإرهابية فلن تستطيع نفي الصفة الإجرامية كذلك.

صاح حسام في غضب:

- أنت مجرد شخص يسعى للانتقام، عماك غضبك عن رؤية الحقيقة.

صاح عصام في حدة:

- أية حقيقة يا هذا، حقيقة اقتحامك للمكان كالمجرمين، أم حقيقة إجراء عملية بدون أوراق رسمية؟

أجابه حسام فى صرامة:

- بل حقيقة إنقاذ ابنى بأية وسيلة كانت بعد أن فقدت كل أمل في إنقاذ ابني.

أشاح عصام بكلتا يديه زاعقًا في غضب:

- هراء، إنها نفس الأعذار التي يتخذها المجرمون لتبرير جرائمهم دائما وأبدا.

اقترب منه حسام كثيرًا حتى التقت أنفاسهما في تحد قائلًا:

- أنت تقول هذا ببساطة لأنه ليس ابنك من احتاج إلى تدخل جراحي سريع وإلا كان الموت نصيبه، أنت لا ترى أبعد من أنفك، كل ما يشغلك هو المجد والقوة فقط، لا تستطيع النظر إلى معاناة الآخرين لأنك أناني ومستبد، حتى أنك تريد استغلال أم لم تزل في فترة النقاهة لتصل إلى مآربك، بئس الوغد أنت.

أمسك المقدم عصام بتلابيب حسام قائلًا في ثورة:

- بل أنت الوغد الذي يبرر كل شيء يفعله، حتى أنني تعرضت للتحقيق بسببكم، نزعت ترقيتي وأصبحت موضع سخرية من الجميع، وها أنا ذا حتى هذه اللحظة موقوف عن العمل، لكن لا،

المجرم سيأخذ جزائه مهما برر من أسباب، الكل أمام القانون سواسية.

نظر حسام في عينيه مباشرة قائلًا:

- افعل ما يحلو لك ولكن لا تتعرض لزوجتي بأي شكل من الأشكال، فهي مجرد أم جازفت بكل ما تملك لتحمي صغيرها، هل تفهم؟!

ظلا يحدقان في بعضهما في تحد ثم أفلته عصام في عنف قائلًا:

- حسنًا سأبعد زوجتك المسكينة عن طريقي، لكنك لن تفر من يدي.

قال حسام في برود وهو يعدل هندامه:

- افعل ما يحلو لك يا سيادة المقدم، ودافع عن ما تسميه القانون، ولكن لا بد أن تدرك شيئًا بالغ الأهمية شئت أم أبيت، هناك ما يسمى بروح القانون مهما أنكرت.

ابتسم المقدم عصام في سخرية وهو يقول:

- وهل كان هناك ما يسمى بروح القانون عندما نزعت ترقيتي وحولت للتحقيقات كأني خائن أو مجرم؟!

قال حسام في هدوء حازم:

- موجود يا سيادة العقيد، أما أمر تطبيقه فهو شأن آخر.

قالها قبل أن يغادر المكان وعينا عصام تتابعه في سخط و وعيد.

****

تسمرت عينا عصام وهو ينظر من خلال نافذة بيته على امرأة تلطم صبيها على وجهه، ثم تجذبه من قميصه بعنف إلى رصيف الشارع الآمن, وهي تصيح به في غلظة وقسوة، كان يدرك أن لطمها له، وصياحها في وجهه، بالرغم من كونه صبي في الخامسة من عمره تقريبًا، لم يكن منبعه القسوة ذاتها، وإنما كان منشأه المصلحة، ذلك ما دفع الأم للتعامل مع وليدها بهذه القسوة والتي لا تتناسب مع طبيعة الأم الرقيقة الحنون، خوفها الشديد عليه من خطر السير في غير الطريق المخصص للمشاة، ويبدو أن الصبي كان مشاكسًا غير مطيع، لذا اضطرت هذه الأم مجبرة للتعامل معه بهذه الطريقة القاسية خوفًا عليه من خطورة السيارات السرعة، وحبًا في أمانه وعافيته، ويا له من مبدأ تسير عليه الدنيا كلها منذ بدأت الخليقة، فقد نضطر آسفين إلى استخدام العنف مع من نحبهم لحمايتهم من خطر ما، وليس لغرض تعذيبهم والتنكيل بهم، وهذا ما يجب أن يفعله مع من يخرج عن الطريق، طريق الصواب والحق والعدل، فيجب على المخالف أن يرتدع، وعلى الظالم أن يرتجع، وعلى العاصي أن يتعظ، هذه هى الطريقة

المثلى لإعادة الشارد إلى القطيع، لا يهم كثيرًا الطريقة والأسلوب؛ فالغاية في نظره تبرر الوسيلة مع من اتخذوا الإجرام وسيلة، لأنهم بسيرهم في طريق الإجرام أضحوا ضد الجميع، فضلوا مصالحهم الشخصية على مصالح أوطانهم، لذا فضميره مستريح لما اتخذه من قرارات ضد حسام ومن معه، ربما يكون قد فعل فعلته من أجل ابنه، لكنه عرض الكثير للخطر، وخالف العرف والقانون، وربما أيضًا يصبح قدوة لغيره ممن تدعوه نفسه لأخذ هذا المسار مستقبلًا، إذا اضطرته الظروف كما اضطرت من قبله، الكل سواسية أمام القانون، ولا ينبغي أن يشرد أحد عن القطيع مهما كان وضعه أليم، ومهما كانت ظروفه قاسية، وهو حامي القانون ورادع الفسدة، ولابد أن يقوم بدوره جيدًا وإلا فلهم كل الحق بعد ذلك في استبداله

. قطع سيل أفكاره المتدفقة طرقات خافتة حذرة على باب مكتبه، حيث اعتاد الجلوس فيه وحيدًا منذ بدأت الأحداث الأخيرة، التفت إلى الباب في ضيق لاقتحام سيل أفكاره المنهمر، حاول أن يخفي عصبيته وهو يأذن لها بالدخول، شجعها على الدخول تغير لهجته العصبية الحادة، تسائلت زوجته في ابتسامة واسعة:

- ألم يشعر زوجي العزيز بالجوع بعد؟

لم يكن يشعر بالجوع بالفعل، لم تعد شهوة الطعام تراوده عن نفسه، بل ربما تكون ماتت مع موت كرامته، لكنه لم يشأ تعكير صفوها بالرفض فقال في ابتسامة حلوة:

- بالتأكيد، أنتِ لا تدركين يا حبيبتي كم أشتاق إلى طعامك الرائع، واجتماعنا الممتع على مائدة واحدة.

أدركت بغريزتها الأنثوية أنه يبذل جهدًا جبارًا ليبدو أمامها الرجل الذي اعتادته طوال زواجهما، شعرت بمرارة عظيمة في أعمق أعماقها على ما حل بزوجها، الذي طالما رأته قويًا قادرًا كالليث، شامخًا كالصقر، أدركت ذلك بحسها الأنثوي الحاذق فردت بابتسامة أكثر حلاوة:

- وأنا قد اشتقت إلى ذلك كثيرًا، حتى أنني لم أتناول وجبتي كاملة منذ... صمتت فجأة وهي تتحاشى النطق بما يذكره بالأحداث المريرة، ففاجأها بضحكة مقتضبة محاولًا إخفاء ضيقه مردفًا:
- لا بأس يا حبيبتي لا بأس، أنا لم أنس ما حدث لحظة واحدة؛ فخيالي لا ينفك يفكر في ما حدث لحظة بلحظة.

قالت زوجته بغيرة مصطنعة محاولة جلبه بعيدًا عن همومه:

- يا لك من خائن، لهذا نسيتني تمامًا كما لو لم يكن لي وجود في حياتك.

هب عصام واقفًا واضعًا يده على كتفها قائلًا في صدق:

- اعذريني يا حبيبتي؛ لم يكن الأمر بيدي، لكن أقسم لك أنني سأعوضك عن تقصيري عندما أنتهي من هذه الأزمة.

ردت زوجته في اعتراض:

- دع ذلك للسلطات يا عصام فهم سيرجعون لك حقك المهضوم.

هتف عصام في صرامة:

- لن أترك ثأري لأحد؛ لا بد لمن وقع عليه الضيم أن يأخذ حقه بنفسه.

ثم استدرك سريعًا لكيلا ينشب خلاف بينهم وهو يدفعها دفعًا:

- هيا يا حبيبتي قبل أن يبرد الطعام، هيا

طاوعته نسرين مرغمة وقلبها يرتجف من الخوف عليه، حدثها قلبها من أن ما مضى كان مجرد نزهة مسير، وأن العاصفة لم تأتي بعد، العاصفة التي قد تزيل كل أثر قديم.

****

دلف المدرب شوقي إلى صالة القتال التي بدأ عملها للتو بعد أن توقف أسبوعًا كاملًا، كان الجو شديد البرودة في النصف الأول من شهر يناير، لهذا تلحف بمعطف فرو يقيه لسعة البرد وهو يهمس لنفسه:

- لقد صرت شيخًا هرمًا يا شوقي ولم تعد تحتمل لسعات البرد.

التقطت أذناه في تلك اللحظة صيحات اللاعبين وصرخاتهم، أخرج من جيبه مفتاح مكتبه الفخم، أداره برفق قبل أن يفتح الباب ويدخل سريعًا اتقاء للبرد الذي ينخر في عظامه الهرمة، جلس على أقرب كرسي قابله وهو يفرك يديه في قوة محاولًا تدفئتهما بعد أن صارتا باردين كقطعتي ثلج، قام من مقعده عندما شعر باحتياجه إلى شراب ساخن، قاطعه صوتًا مألوفًا يقول مازحًا:

- هل ستشرب هذا المشروب الساخن بمفردك.

التفت ليجد حسام واقفًا على الباب عاقدًا ذراعيه أمام صدره، هتف مدربه مرحبًا به:

- حماتك تحبك، هيا اصنع لنفسك مشروبك الخاص، لا تظن أنني في عمري هذا سأخدمك.

قال حسام في سرعة:

- عفوًا يا كابتن شوقي، هذا واجبي أنا.

ابتسم المدرب وهو يعود لمكتبه في بطء ملحوظ، تابعه حسام ببصره ثم سأله في إشفاق:

- لم أتيت مبكرًا في هذا الطقس؟ كان الأفضل أن تأتي وقت الظهيرة.

هز رأسه نفيًا قبل أن يجيب:

- أنت تعرفني يا حسام، لا أحبذ الجلوس في البيت خاصة بعد أن رحلت زوجتي العزيزة.

غمغم حسام معزيًا:

- رحمها الله رحمة واسعة.

هز مدربه رأسه موافقًا وهو يردد بحزن عميق:

- كانت زوجة مخلصة، تحملت الكثير، ويا ليتها كانت تحيا حتى اليوم لترى ما صنعته بيدي.

أومأ حسام برأسه مؤيدًا، سأله مدربه بغتة في اهتمام:

- نسيت أن أسألك، لماذا جئت اليوم ما دمت غير متأكدًا من مجيئي؟

قال حسام في بساطة:

- جئت لأكمل تدريباتي التي بدأتها على يديك، هل نسيت؟

انعقد حاجبا المدرب الكثين وهو يسأل حسام في حذر:

- ولماذا تريد أن تكمل تدريباتك تلك؟ ألم ينتهي الأمر بعد؟

افتر ثغر حسام عن ابتسامة غامضة قائلًا:

- بل بدأ الآن فقط يا مدربي العزيز.

ازداد انعقاد حاجباه وهو يرنو إليه في قلق قبل أن يسأله:

- حسام، هل تود الدخول في نزالات قتالية مرة أخرى؟

اتسعت ابتسامة حسام كثيرًا وهو يقول في ثقة:

- بكل تأكيد

استفزته إجابة حسام المقتضبة الواثقة فغليت مراجله في غضب، ضرب سطح مكتبه وهو يصيح:

- إنك مجنون ولا شك، هل نسيت أنه لولا تدخل زوجتك في الوقت المناسب لكنت الآن ترقد في قبرك؟ أفق يا حسام ولا تجعلني أندم على مساعدتي لك.

اربد وجه حسام وهو يسأل مدربه:

- ما الذي يجعلك تغضب إلى هذا الحد؟ سأتدرب حتى أصبح جاهزًا للقتال، ليس قبل ذلك، وإذا لم أصبح جاهزًا لن أشارك في أي نزال.

صاح المدرب محذرًا:

- سيكون الأمر خطيرًا للغاية، لن ترى الأمر على حقيقته إلا بعد فوات الأوان، النفس أمارة بالسوء يا بنى، عد إلى حياتك السابقة واحمد الله أن الأمر انتهى على خير.

هتف حسام بوجه مكفهر:

- لا لم ينتهي الأمر بعد، هناك من يتلهف لاقتناصنا والانتقام منا، ثم أنني لن أعود إلى حياة الفقر مرة أخرى، لقد كدت أفقد ابني بسببه.

قام مدربه من فوق مقعده بشيء من الصعوبة، اتجه إليه قبل أن يضع يديه على كتفه قائلًا:

- حياتك لم تكن سيئة يا حسام، كنت تحيا حياة كريمة لم يفسدها إلا مرض ابنك، فلا تفسد حياتك من أجل الانتقام من الفقر، فقرك هذا لم يمنعك من إنقاذ يحيى فاحمد الله وانسى ما مر من مصاعب.

صاح حسام في احتداد:

- هل نسيت كيف أنقذت ابني؟ لقد كدنا نهلك جميعًا، والآن نحن نتهم بالإرهاب ومعرضين للعقاب في أي وقت إذا توفر لديهم دليل واحد ضدنا، كل هذا بسبب الفقر اللعين، ثم ماذا سأفعل إذا حدث سوء لأحد أبنائي مرة أخرى، هل سنكرر ما فعلناه مرة أخرى أم أستجدي الناس كي أغطي التكاليف الباهظة؟ كلا لن أسمح بتكرار الأمر مرة أخرى.

رفع المدرب يده عن كتفه في يأس ثم استجار وعاد إلى مكتبه، شبك أصابعه أمام وجهه، فكر في عمق ثم قال في صوت خافت:

- على الرغم من تعرضك للأذى الشديد في القتال الأخير إلا أنك ستعيد الكرة، حسنًا، وإذا منعتك من المضي قدمًا لتحقيق مرادك ماذا ستفعل؟

انعقد حاجبا حسام في قلق وهو يقول:

- هل تمزح يا كابتن شوقي؟

صمت المدرب قليلًا، كان يتحسس الكلمة التالية التي ستخرج من فمه، قال في حزم:

- سأمنعك من حضور التدريبات هنا، وبالتالى خوض أي قتال في المستقبل.

صاح حسام في استنكار:

- ما الذي تقوله يا كابتن شوقي؟!

قال المدرب في حسم:

- ما سمعته يا بني، لن أمنحك الفرصة لتقتل نفسك.

نظر حسام إلى عيني مدربه مباشرة، كان يتأكد من صدق نيته في ما قال، ثم سأله في هدوء مباغت:

- أخبرني يا كابتن، لماذا افتتحت هذا المكان وتحملت الكثير لتضمن عمله، أليس من أجل المال؟

لم ينبس مدربه بكلمة، فاستطرد حسام في هدوء وحزم:

- لقد فعلته من أجل المال كما أخبرتني سابقًا، بالرغم من مخالفة ذلك لبعض مبادئك، احتجت المال من أجل ابنتيك، من أجل أن تضمن لهن مستقبلًا جيدًا، كذلك أنا أحتاج المال من أجل أطفالي أيضًا.

ظل مدربه على صمته طويلًا هذه المرة، كان يبدو أن هناك صراعًا مشتعلًا في أعماق، حسمه أخيرًا عندما قال في استسلام:

- حسنًا لقد هزمتني ياحسام ، استعد من الآن إن شئت.

قالها ثم غادر المكان في سرعة لمتابعة تدريبات مقاتليه، ارتخى حسام في مقعده وهو يتنهد في عمق وارتياح؛ كان يخشى لبعض الوقت أن يتخذ مدربه قرارًا مخالفًا، أغمض عينيه قليلًا وراح يفكر في الأيام القادمة، كان قراره باحتراف القتال يعتبر فاصلًا في حياته بين عهدين، حياة الفقر وحياة الثراء، لا شيء سيثنيه عن قراره مهما كان الثمن، كان عليه الإستعداد للمباريات القتالية القادمة القاسية، والإستعداد لما هو أقسى، «المقدم عصام».

****

تناول عصام الطعام مع زوجته وأولاده في صمت، كان عصام خلال الفترة السابقة حبيس مكتبه، لم يخرج منه إلا نادرًا، لذا كان جلوسه معهم بمثابة تطور جيد في حالته، وكانت زوجته راضية بكلامه القليل سواء معها أو مع أولاده، وهذا في حد ذاته امتياز حصلت عليه، لم يكن يخطر ببال أحدهم أن يحدث هذا مهما كان خياله جامحًا، لذا لا يستغرب من سعادتها البالغة لمجرد جلوسه معهم على مائدة واحدة، كان عصام يدرك أنها تشعر به وليست منفصلة عنه، وأنها تحاول ألا تضغط عليه كثيرًا، إلا أن تركيزه التام في القضية كان ينحي كل شيء جانبًا، لم يكن يريد أن يشتت ذهنه بشيء ما، أدركت نسرين أنه غرق في بحر الأفكار من جديد، أدركت ذلك لعدم تناوله الطعام منذ دقيقة كاملة، كبر عليها أن تتركه فريسة للهموم مرة أخرى، ليس غيرة وحنقًا وإنما إشفاقًا وحبًا فقالت :

- إنك مغرم بتحميل نفسك من الهموم ما لا تطيق.

أخرجه صوتها من غياهب أفكاره فالتفت إليها سريعًا معتذرًا، حاول أن يبتسم إلا أن محاولته بائت بالفشل، كيف يشرح لها الإحساس الخانق الذي يقهره، بل كيف يشرح لها إحساسه لأول مرة في حياته بالضعف والخور؟ إن المرأة لا تريد أن ترى زوجها مهيضًا ضعيفًا، أحس بالضجر والحنق للظروف التي أدت لهذا، قام معلنًا أنه قد شبع، دلف إلى الحمام في هدوء، نظر إلى المرآة قبل أن تصيبه دهشة، لم تتغير شخصيته فقط، بل تغيرت هيئته أيضًا، شحوب في الوجه واسمرار أسفل عينيه، لم ينظر إلى المرآة منذ بدأت هذه الأحداث، أدرك كم تعذبت زوجته لرؤيته على هذا النحو دون أن تبدي انفعالًا أو تنطق بكلمة، أدار بكرة صنبور المياة، مد يده يغرف من الماء ثم يصدم بها وجهه في عنف، كأنما يريد الإستيقاظ من كابوس سخيف عنيد لا يفارقه، مسح وجهه بالمنشفة قبل أن يدلف إلى غرفة النوم في إرهاق لم يدر له سببًا، ربما حالته النفسية السيئة، وربما الضغط العصبي الذي يحيا فيه منذ حوالي أسبوعين، وربما كليهما، لم يكد يستلقي على فراشه حتى طرق الباب طرقات خفيفة ثم دخلت زوجته مبتسمة قائلة في رقة:

- هل ستأوي إلى الفراش وحدك؟

كاد يجيبها بأنه مرهق ويحتاج جسده للنوم بشدة، لكنها لم تعطه الفرصة لذلك، فبحركة سريعة أفلتت رباط روبها الوردي ليكشف عن جسدها، نسي عصام كل آلامه وهمومه فجأة كأنما تبخرت في الهواء، شعر بالظمأ الشديد لمجرد لمسها، قال في لهفة واشتياق:

- اشتقت إليكِ كثيرًا

أجابته في دلال وإغراء:

- وأنا أيضًا

أعادته للفراش بدفعة من يدها ثم لحقت به؛ لينعما بأجمل ليلة مرت عليهما منذ زمن طويل، نسي عصام فيها كل شيء، حتى نفسه.

****

لم يجد حسام بدًا من مغادرة المكان بعد أن ألقى نظرة أخيرة على يحيى ونادية، هبط بعدها درجات السلم ببطء وهو يفكر في عصام وما يمثله من خطورة، في نفس اللحظة كان هناك رجلين يجلسا في سيارة رمادية من طراز شهير أمام المركز الطبي، توفيق وإبراهيم نقيبي شرطة كلفهما عصام بتتبع حسام ومراقبته، بل وإحصاء عدد خطواته وأنفاسه أيضًا إذا أمكن، قال توفيق لزميله وهو يدخن سيجارة:

- لا أدري لم يصر عصام بالاكتفاء بمراقبته فقط، لم لا نتعامل معه بطريقتنا الخاصة كما فعلنا مرات كثيرة في السابق؟

أجابه إبراهيم في سخط:

- أنت تعرفه، يترك لنا بقايا الطعام، ويستبقي لنفسه الوجبة الرئيسية.

قال توفيق في سخط مماثل:

- لو كان الأمر بيدي لجعلته يعترف بكل شيء في خمس دقائق فقط.

لم يرد عليه إبراهيم، كان يفكر في عمق ثم قال بغتة:

- ما الذي يريده المقدم، أليس القبض على الجناة الحقيقيين؟

أجابه توفيق في حذر:

- نعم، بالتأكيد
- لقد نجحنا في كل محاولات انتزاع المعلومات السابقة، فما وجه الاختلاف هذه المرة؟

قال توفيق في عصبية وحدة:

- إصرار المقدم هذه المرة بالتحديد على عدم التعرض له مهما حدث.

قال إبراهيم في استنكار:

- لكنه مجرد إرهابي كباقي الإرهابيين الذين تعاملنا معهم من قبل.

قال توفيق في حيرة:

- لا أدري بحق، ربما هناك سبب غير مفهوم.

قال إبراهيم في حسم:

- بل هناك سببًا مفهومًا وواضحًا للغاية، لكننا لا نرى أبعد من أنوفنا.

سأله توفيق في لهفة:

- وما هو؟

تردد إبراهيم لحظات قبل أن يستجمع شجاعته مجيبًا:

- ربما يكون المقدم عصام متورطًا مثلا!

نظر توفيق إلى زميله في استنكار هائل، ثم صاح في غضب:

- كيف تجرؤ يا هذا، أنسيت من هو المقدم عصام؟

قال إبراهيم في هدوء واثق:

- لا لم أنس، لكن فكر معي قليلًا ماذا لو...

قاطعه توفيق في غضب:

- أفكر في ماذا يا رجل، يبدو أنك جننت.

قال إبراهيم محاولًا تهدئته:

- قلت لك لم أنس، لكن يجب أن تعمل العقل قبل اتخاذ الجانب الذي ستنحاز إليه، راجع معي الأمر منذ البداية، يحدث الاقتحام فيطلب

العقيد عصام الدخول إلى المركز الطبي للحديث مع منفذي العملية دون سلاح أو حماية، بحجة محاولة التشاور معهم من أجل الحفاظ على الرهائن في الداخل، يغيب نصف الساعة ثم يخرج قائلًا إنهم ليسوا إرهابيين وإنما مجرد مجرمين، بالرغم من سيطرتهم على المكان وحجزهم رهائن بالداخل، ثم يأمر فجأة باقتحام المكان بعد أن يستقل طائرة الهليوكوبتر والاشتباك مع بعضهم في إطلاق نار، ثم تقتحم قوات الشرطة فلا تجد إلا فريق طبي يجري عملية جراحية دون أن يتعرضون للأذى، كأنهم يحاولون إفهامنا أنها ليست عملية إرهابية، وإلا لكانوا قتلوا من بالداخل في حالة عدم الحصول على ما يريدون، فتذهب الأنظار إلى زاوية أخرى بعيدة عن الحقيقة، ألا يعني لك كل هذا شيء؟

كان يبدو على وجه توفيق الصدمة القوية، سكت لحظات ثم قال في صوت مبحوح من أثر المفاجأة:

- وما الذي جنوه من عملية إرهابية لم يطلب منفذوها أي طلبات حتى الأن؟

أشار إبراهيم إلى رأسه بمكر:

- هنا تكمن العبقرية، هم لم يكن لهم طلبات أبدًا، كان هدفهم الوحيد هو إثارة الرأى العام وإظهار الأمن المصري بمظهر الضعيف والمشلول.

قال توفيق في تردد:

- لكن العقيد عصام فوق مستوى الشبهات، أنا عملت معه من قبل كثيرًا ورأيت مدى إخلاصه ووفائه لعمله.

قال إبراهيم في خبث وابتسامة ثعلبية تملأ وجهه:

- وهنا تكمن العبقرية، فلا بد أن يكون رجلهم فوق مستوى الشبهات.

سأل توفيق في حيرة:

- أكل هذا من أجل إظهار جهاز الشرطة بمظهر الضعيف؟!

أشار بإصبعه إلى رأسه مرة أخرى قائلًا في خبث ومكر:

- بل هذا هو البداية فقط، ثم يأتي بعد ذلك إسقاط هيبة الدولة ذاتها.

كان ارتفاع حاجبا توفيق عاليًا حتى منبت شعر رأسه علامة مؤكدة على مدى تأثره، لم يكتف إبراهيم بهذا بل أردف:

- كنت أشك في هذا منذ البداية، لكن إصرار المقدم عصام على عدم التعرض لحسام هذا جعلنى أفتش في الأمر من كل النواحي، حتى توصلت إلى ما قلته لك الآن.

سأل توفيق في غضب مكتوم:

- ما العمل إذًا؟

قال إبراهيم:

- نتعامل معه بالطريقة التي نجيدها والتي تؤتي ثمارها دائمًا، لعلنا نعرف ما المشكلة التى بين عصام وحسام هذا

ردد توفيق في دهشة:

- مشكلة!
- بالتأكيد، لماذا إذًا كلفنا بتتبعه كأننا ظله إلا إذا حدث بينهما شيء جعلاهما لا يأمنان لبعضهما البعض.

صمت توفيق محاولًا استيعاب ما سمعه قبل أن يتذكر أمرًا بغتة:

- ولكن هناك أمر لم أفهمه بعد، فحسام هذا الذي نراقبه، أجريت لابنه عملية زراعة كبد بالفعل، حيث تم نقل جزء من كبد الأم إلى ابنها، وهي العملية التي كانت تجرى أثناء عملية الاقتحام.

قال زميله في بساطة:

- الحبكة يا صديقي، كالحبكة الدرامية التي تحدث في الأفلام حتى لا يصاب أحد بالشك، فلا بد أن تسير الأمور بشكل طبيعي للغاية.

تجهم وجه توفيق واسود من كظمه لغيظه، شعر أنه ضحية خدعة كبيرة، بل شعر كأن البلد نفسها ضحية خدعة رهيبة ستأكل الأخضر واليابس، أحس باختناق ففتح زجاج سيارته لتضرب وجهه ريحًا باردة لم يشعر معها بأدنى إحساس بالبرودة، لم يشعر إلا بالغضب الذي ينفجر في عروقه فيمده بحمم من الغيظ والغضب، حتى أنه لم يرى حسام الذي خرج من باب المركز الطبي ومر أمام سيارتهما دون أن يلتفت لها، كان هو الآخر قد سرح بخياله بعيدًا يفكر في المواجهة القادمة، صاح إبراهيم في انفعال:

- ها هو هناك يا توفيق، ألا تراه؟!

نظر توفيق إلى حيث يشير زميله فرأى حسام يعبر الطريق بحذر، أدار محرك سيارته لينطلق بها خلف حسام قاطعًا الطريق أمامه في عنف، انطلقت أبواق تنبيه السيارات القادمة تصرخ معترضة وإطاراتها تتوقف مرغمة في ضجيج عال، إلا أنه لم يبال بشيء من هذا، صاح إبراهيم في اعتراض:

- ماذا ستفعل يا رجل، ستقتلنا؟!
- ألست أنت من شحنتني بكلامك عن المؤامرة التي ستسقط البلد.

لم ينبس إبراهيم ببنت شفة، لم يتخيل أن يبلغ تأثير كلامه إلى هذه الدرجة في نفس توفيق، شحذ تركيزه في ما يفعله زميله الآن وقد وقر في نفسه أنه

لا بد قد أصيب بلوثة، توقف توفيق أمام حسام قبل أن يأمره بالركوب معهم، رفض حسام الامتثال بإصرار، مما جعل توفيق يستل مسدسه من جرابه المعلق قائلًا في غضب وصرامة شديدة:

- اركب السيارة أو أقتلك أيها الإرهابي الحقير.

احتقن وجه حسام في غضب وهو يصرخ فيهم:

- من أنتم وماذا تريدون مني؟

حاول إبراهيم مداركة الموضوع قبل أن ينتبه له أحد، فقال وهو يهدده بسلاحه الآخر:

- اركب يا هذا وستعلم من نحن عندما تأتي معنا.

هتف حسام في صرامة مشوبة بالقلق:

- لن أركب معكم حتى أرى هوياتكم.

نظرا إليه في حنق، لولا لفت الأنظار إليهم لانقضوا عليه وألقوه في السيارة بعنف بالغ، أخرج توفيق هويته وهو يشير بها قائلًا:

- ها هي، هل ارتحت الآن أيها الإرهابي؟

هز حسام رأسه نفيًا وهو يتطلع إلى الهوية ثم تمتم:

- بالعكس، لقد ازدت توترًا وخوفًا عن ذي قبل.

قالها قبل أن يركل مسدس توفيق من يده ليسقط داخل السيارة، ثم يدور على عقبيه وينطلق بأقصى سرعة تسمح بها قدميه، بوغت إبراهيم برد فعل حسام السريع فلم يستوعب الأمر بسرعته المعتادة، انطلق توفيق بالسيارة خلف حسام قائلًا في غضب:

- أرني كيف ستهرب مني أيها الإرهابي الحقير.

اصطدم مرتين بسيارتين حاولتا مفاداته، لم يأبه بسيل الشتائم الذي لاحقه، اقترب كثيرًا من حسام الذي كان يعدو بكل قوته، تابع المارة المطاردة المثيرة في دهشة، في نفس اللحظة التي لحقت فيها السيارة حسام كان الأخير ينحرف إلى شارع جانبي ضيق ثم يكمل عدوه فيه بسرعته القصوى، صرخت عجلات السيارة بسبب التوقف المفاجئ، بعد أن تجاوزت الطريق الذي مر به حسام منذ لحظات، ثم عاد بها توفيق في حدة و دلف إلى الشارع الضيق بسرعة كبيرة، احتك بعشرات السيارات التي كان بعضها متوقفًا أمام منازل أصحابها، في حين توقف الباقون مبتعدين قدر الإمكان حتى تمر هذه السيارة المجنونة بسلام، انطلق الشرطيان في الشارع ينظران يمنة ويسرة دون أن يجدا أثرًا لحسام، كان قد اختفى أو كما يقول المثل «فص ملح وداب»، توقفوا بالسيارة أمام مقهى جانبي، سألوا رواده عما إذا كانوا قد رأوا الرجل الذي يطاردونه بعد أن أدليا

بأوصافه، لم يعرهم أغلب الناس التفاتًا، في حين تطلع إليهم بعضهم في سخرية وتشفي، أدركا حينها أنهم لن يحصلوا على أية معلومات، فهتف إبراهيم في غيظ:

- هيا يا توفيق، لقد ضاع منا الصيد هذه المرة.

هم توفيق بالنزول بجسده الضخم قائلًا:

- هيا ننزل ونلقن هؤلاء الناس درسًا لن ينسوه.

قال إبراهيم في غضب:

- أي درس يا رجل؟ إنهم بالعشرات ولا تنسى أننا أفسدنا الكثير من سيارات سكان هذا الحي، هيا قبل أن ينقضوا علينا و يفتكوا بنا.

انطلقا بالسيارة حتى اختفيا تماما، في نفس اللحظة التي ظهر فيها حسام من داخل المقهى في هدوء، تطلع إليه الجميع في إعجاب، على الرغم من عدم معرفتهم السابقة به، وما الذي ارتكبه لينطلقا خلفه بهذه القسوة.

****

دلف الصحفى هشام إلى دار نشر كبرى بعد أن أنهى كتابة روايته بكل تفاصيلها، حتى لحظة هروبهم من المركز الطبي، لم يمض الكثير من الوقت حتى جاءه المدير الذي حياه بحرارة، وسمح له بالجلوس على مقعد وثير يناسب حجمه، مرت ساعة كاملة تحدثوا فيها عن كل ما يخص الرواية من عمليات النشر والتدقيق إلى آخره، ثم غادر بعدها هشام متجهًا إلى سيارته في عجالة، كان يشعر بالبرد الشديد ينخر عظامه بالرغم من كم الملابس الثقيلة التي يرتديها، والتي جعلته أشبه بدب قطبي، بخطوات لاهثة سريعة وصل إلى سيارته، أخرج مفتاحه من جيبه بصعوبة بالغة بعد أن كاد ييأس من العثور عليه، كاد أن يفتح باب السيارة لولا أن سمع صوتًا مألوفًا يقول في هدوء:

- مبارك قبول الرواية للنشر يا أستاذ هشام.

التفت هشام بسرعة لا تناسب حجمه وحالته الصحية إلى مصدر الصوت في رعب، فطالعه وجه ذلك الشاب الذي قص عليه أحداث الرواية، حاول هشام السيطرة على انفعالاته دون جدوى، عرق في غزارة رغم البرودة التي تحيط به وتلجلج، عاجله الشاب رحمة به قائلًا في إشفاق:

- يبدو أنك متعب للغاية يا أستاذ هشام.

قال هشام في صوت ضعيف:

- يبدو ذلك يا سيد...

أجابه الشاب دون تردد:

- رأفت.

هز هشام رأسه في ارتياح، أخيرًا عرف اسم هذا الشاب الغامض، الشعور بالغموض يستفزه بشده، ثم إن طبيعة عمله هي كشف الغموض وحل الألغاز وهتك الأسرار، هز رأسه مبتسمًا بصعوبة قائلًا:

- هل هناك شيء جديد يا أستاذ رأفت؟!

جذبه رأفت من يده في حزم وهو يقول:

- دعنا نجلس في مقهى قريب لنشرب مشروبًا ساخنًا ونتحدث.

انتزع هشام يده في حدة قائلًا في جرأة يحسد عليها:

- لا أدري سببًا لحبك الجلوس في المقاهي في الطقس البارد، إنني أتجمد يا رجل، هلا جلسنا في سيارتي؟

فتح باب السيارة ثم حشر جسده في المقعد الأمامي ثم خاطب رأفت الذي جلس في المقعد المجاور في مرارة:

- صرتُ لا أستطيع تحمل درجات البرودة المنخفضة فهي تنخر في عظامي نخرًا، أما أنت فربما لم تحرك فيك شعرة.

جاوبه رأفت بابتسامة مهذبة، ثم اكتست صفحة وجهه بجدية مباغتة وهو يسأله في اهتمام بالغ:

- هل كتبت في الرواية كل التفاصيل التي أخبرتك بها؟

ارتعد صوت الصحفي وهو يقول:

- بالتأكيد، ولكن لدي سؤال يحيرني، من أنت؟
- لقد أخبرتك من قبل أن اسمي رأفت.
- ماذا تعمل، ومن أي البلاد أنت؟
- كل هذا لا يهم يا أستاذ هشام، المهم هو الرواية

سأله هشام محتجًا:

- وما يدريني أن الرواية أحداثها حقيقية أو بعضها على الأقل؟

سأل رأفت فى بساطة:

- وما الذي يدعوني للكذب؟

هتف هشام في عناد وجرأة:

- أي شئ قد يدعو الإنسان للكذب.

صمت رأفت قليلًا قبل أن يقول فى حسم:

- على العموم لن تخسر شيئًا، ستكون مجرد رواية لن تضرك كتابتها.
- ما الفائدة إذًا من كتابة رواية يظن الناس أن أحداثها خيالية؟

أجاب رأفت في هدوء وصبر:

- ليس الأمر كما تتوقع، عندما يقارن الناس بين أحداث الرواية وبين ما تم في الواقع سيعلمون بدون جهد أنها تحكي التفاصيل الحقيقية.

هز هشام كتفيه في بساطة قائلًا:

- أغلب الناس لن يصدقها، ولن يربطوا بينها وبين الواقع بسهولة.

قال رأفت في ثقة:

- لسنا من أهل الطمع، والعجلة والطيش ليست من صفاتنا، دع الحقيقة تأتي على مهلها، ولكن قبل أن أنسى، متى ستكون الرواية جاهزة للنشر؟
- في خلال أسبوع واحد، لقد ضغطت عليهم كثيرًا حتى وافقوا.

مد رأفت يده يصافحه وهو يقول له:

- صدقني لا أستطيع شكرك كفاية على ما فعلته من أجلنا.

غادر رأفت بعدها مباشرة، أغلق هشام باب سيارته بإحكام قبل أن يدير محرك سيارته وينطلق مسرعًا، كان يدور في عقله سؤال واحد فقط، هل أدى دوره في براعة واستطاع خداع رأفت هذا، أم أن هذا الأخير شعر بالخدعة وهو يتظاهر بأنه لم ينتبه لها؟ لقد فعل هشام ما أملاه عليه المقدم عصام بالحرف الواحد، فعندما قابله هشام في المقهى منذ أسبوعين، لم يطمئن قلبه لكلام رأفت حيث شعر بخطورة ما يحمله من معلومات، لذا ما إن غادر المكان وهو يحمل الملف حتى أجرى اتصالًا بالمقدم فوزي القصاب، الذي أبلغ بدوره العقيد عصام، ثم كان اللقاء الذي جمع بينهما بعد ذلك.

****

ارتفع حاجبا المدرب شوقي في ذهول، لم يتخيل قط حدوث أمر كهذا، هذا معناه أن الأمور اتخذت منحى خطير، هز رأسه في حيرة قائلًا:

- لقد خرجت الأمور عن السيطرة بالفعل.

قال حسام:

- لكني اعتقد أن الأمر خرج عن سيطرتهم دون قصد.

سأل ايمن في عصبية:

- كيف تقول هذا، ألم يستلوا مسدساتهم في وجهك ويهددونك بالقتل إذا لم ترضخ لتهديدهم بل وطاردوك بعنف أيضًا؟

مط حسام شفتيه قائلًا بعد تفكير عميق:

- لا أعتقد أنهم أرادوا قتلي، وإنما أعتقد أنهم أرادوا القبض علي لإجباري على الاعتراف أنني المسئول عن اقتحام المركز الطبي.

سأله مدربه في صرامة:

- وماذا لو رفضت التعاون، هل كانوا سيتركونك ترحل في هدوء بعد أن يتلوا عليك حقوقك القانونية؟ أفق يا حسام واحذر جيدًا؛ فهؤلاء القوم لا يمزحون أبدًا.

اكفهر وجه حسام وهو يتخيل ما كانوا سيفعلونه به إذا لم يرضخ لهم ويعترف بكل شيء، حتى لو كان بريئًا من التهم تماما، تدخل أيمن قائلًا في قلق:

- ما العمل إذًا، هل ستهرب الآن أم ماذا؟

أجابه حسام في ضيق:

- إلى أين؟ ثم أن هناك أمر بالغ الأهمية لم تلتفتوا إليه بعد.

تطلعوا إليه فى اهتمام بالغ فاستطرد في سرعة:

- لولا إصرار عصام أن يباشر القضية بنفسه لكنت الآن في خبر كان، إنه يحمينا بأي ثمن للقضاء علينا بيده بعد ذلك عندما يباشر عمله من جديد، إنه الحامي والجلاد في نفس الوقت.

تبادل المدرب وأيمن النظرات فيما بينهم، لاحظ حسام ذلك فأقلقته الرسائل الخاصة التي بعثت بينهما بطريقة غامضة، سألهم ليبدد الغموض الذي اكتنفه:

- هل هناك شيء تودون إخبارى به؟

أجابه مدربه بعد تردد:

- نعم، لكنهما اثنين لا واحد.

ثم حدج أيمن يدفعه للكلام فقال الأخير بعد تردد:

- المقدم عصام ذهب اليوم لنادية وتحدث معها بشأن ما حدث، حدث هذا بعد مغادرتك لها بساعة ونصف تقريبًا.

كان وجه حسام صورة مجسمة للغضب والاشمئزاز فصاح في حدة:

- إذًا فقد وضع عينًا له هناك ليعلمه إذا أفاقت حتى يأتي لاستجوابها سريعًا! كان ينبغي أن أستنتج هذا.

قال أيمن محاولًا طمأنته:

- لا تقلق؛ فلم تلفظ نادية بكلمة، مما دفع عصام بالمغادرة سريعًا في غضب وحنق وهو يبرق ويرعد.

صمت حسام حتى سيطر على غضبه، ثم سألهم في اهتمام بالغ:

- ما هو الأمر الثاني الذي تودون إخباري به؟

قال المدرب هذه المرة في حذر:

- سيبدأ غدًا تسلم المقدم عصام لعمله.

انعقد حاجبا حسام في شدة؛ فقد كانت هذه هي نهاية اللعبة بالنسبة له.

****

نظر عصام من نافذة مكتبه يتطلع إلى الناس كما هي عادته منذ بدأت تلك المشكلة، يبدو أنه رأى فائدة من الجلوس في غرفة مكتبه سجينًا كسجين زندا، يتطلع إلى الناس وهو يراقب حركاتهم وسكناتهم، كانوا في نظره كأنهم آلات تسير في حركة ميكانيكية، لا هم لهم إلا السير فقط، تدفعهم رغبتهم في السعي وراء مصالحهم، كانت حركة الناس التي لا تتوقف ذهابًا وإيابًا في حركة عشوائية تمثل ببساطة صورة لحركة الحياة التي لا تسير في خط مستقيم وإنما تسير حسب ما تتطلبه المصلحة.

انطلق رنين هاتفه فوضعه على أذنه في حركة تلقائية، استمع إلى صوت محدثه لدقيقتين قبل أن يرفع هاتفه عن أذنه في حركة بطيئة؛ حيثُ أخبره محدثه بما دار بين توفيق وإبراهيم وحسام، وأن الأمر تطلب مطاردة خطيرة وتدمير بعض السيارات. اشتعل الغضب في نفسه كالحمم، عزاؤه الوحيد أنه سيتسلم عمله غدًا، لم يكن حسام يشكل فارقًا معه على الإطلاق سواء أجبروه على الإدلاء بما فعل، أو حتى قتلوه للإعتراف بهذا، كان ما يهمه بالتحديد أن يتعامل معه هو ولا أحد غيره، لن يسمح لأحد بأخذ ذلك الحق منه، سيسترد كرامته بنفسه وسيصفق له الجميع على مهارته وحنكته وذكائه، كان على عكس المتوقع سعيدًا للغاية لفرار حسام من بين أيديهم، إنه ببساطة عمله هو، وهو يحب أن يؤدي مهامه الخاصة بنفسه.

أخرج تنهيدة عميقة، أخيرًا لن يفصله عن التعامل مع حسام إلا سويعات قليلة، سبع ساعات بالتحديد ثم يطبق على عنقه بقسوة، لكنه لا بد أن يسيطر على أعصابه ويسير حسب ما خطط له، إنه لا يستهدف حسام وحده، بل يستهدف رفاقه كلهم، أما مساعديه الأغبياء فسيعاقبهم لمخالفتهم أمره، فقد كانوا سيضيعون عليه مجهودًا ثمينًا، وربما يضيعون الهدف الرئيسي نفسه.

****

انطلق حسام إلى صالة القتال في الصباح التالي ليبدأ تدريباته الخاصة؛ حتى يصير أحد المقاتلين الذين بإمكانهم خوض النزالات والفوز فيها، ولن يأتى ذلك إلا بالتدريب القاسي والعنيف. خالجه شعور أن نفسه قد طرأ عليها تغيرات كثيرة؛ فلم يعد ذلك الرجل الذي كان كل حلمه تكوين أسرة، وأن يتزوج من المرأة التي أحب، بدأ يعتقد أنه عاش الفترة السابقة من

حياته كغر ساذج، لم تنفعه المثالية التي عاش فيها طويلًا، تهدم معبد المثالية على صخرة الواقع القاسي، الواقع الذي لا يعترف بالطيبة والمبادئ، إنهم حتى تركوا ابنه يموت لأنه لا يملك المال لإجراء العملية، يا لسخرية الحياة، إنها معادلة بسيطة، المال مقابل الحياة، حينها سخر من مبادئه القديمة؛ فالمثالية لن تنقذه والطيبة لن تشفع له، المال فقط هو من يتحكم بكل شيء، حتى الحياة نفسها، أغلى ما يملك الإنسان.

من يمكنه أن يشعر بمرارته، بحنقه، بغضبه، بخوفه مما يأتى به المستقبل، ماذا لو تكرر ما حدث مرة أخرى، هل سيخوض التجربة من جديد؟ كلا بالطبع، ربما حالفه الحظ مرة، لكن تكراره هو المستحيل بعينه.

وصل إلى صالة القتال ليبدأ تمريناته على الفور بهمة ونشاط، رمقه مدربه بنظرة حادة قبل أن يسأله:

- متى ستعود إلى عملك؟

قال حسام في عناد:

- لن أعود يا كابتن شوقي، لن أعود أبدا.

سأله مدربه في احتداد:

- كيف ستعيش إذًا؟

أشار حسام إلى المكان بكلتا يديه قائلًا:

- من هنا، هذا المكان فيه عملي الآن.
- أنت شديد الإصرار والعناد يا حسام.

هز حسام رأسه موافقًا:

- أوافقك، فهذا المكان هو أملي الوحيد في أن أصبح من الأثرياء.

صاح مدربه في تهكم غاضب:

- هذا إذا بقيت واقفًا على قدميك.

أشار حسام بإصبعه قائلًا:

- لا تنسى أن الوقت كان ضيقًا وكنت أقع تحت ضغط نفسي كبير.

أزور عنه المدرب غاضبًا، قال وهو يبتعد:

- الحمقى هم الذين لا يدركون ما يفعلونه إلا بعد فوات الآوان.

راقب حسام مدربه حتى غادر المكان تمامًا ثم غمغم ساخطًا:

- الحمقى فقط هم من لا يملكون المال الكثير.
-

قالها قبل أن ينخرط في التمارين القاسية حتى النخاع.

****

دلف المقدم عصام إلى مكتبه في كامل نشاطه المعهود وأناقته المعتادة، كان كما اعتاده مقربوه طيلة ما يقارب العقدين من الزمان، إلا أن الأمر المختلف هذه المرة هو سحنته الغاضبة، ومن العبث أن نحاول أن نصف غضبه؛ فهو حين يغضب يتحول إلى كائن أشبه ما يكون بليث سلب أحد الضباع منه فريسته وهي بين فكيه.

سأل مساعده:

- هل حضرا توفيق وإبراهيم بعد؟

أجابه مساعده في حذر:

- لا، لم يحضرا بعد يا سيادة المقدم.

صرفه بإشارة من يده ثم جلس يفكر في الخطوة التالية، لا بد من العمل فورًا حتى لا يضيع وقتًا إضافيًا غير الذي ضاع، كان قد استطاع جمع الكثير من المعلومات خلال الفترة الماضية عن حسام وأصدقائه وأماكن تجمعهم الرئيسية، وبدأت الصورة تتضح شيئًا فشيئًا، وبدا من المؤكد له أن هؤلاء الناس الذين تردد عليهم مرارًا بعد عملية الاقتحام كانوا هم رفقائه في هذه العملية بالتأكيد. رن هاتفه في تلك اللحظة، استمع إلى محدثه باهتمام ثم قال في حزم صارم:

- جيد يا بدر، التزم مكانك وأخبرني إذا جد جديد.

أخبره بدر أن حسام عاد إلى التدريب من جديد، تسائل :ما الذي يعنيه هذا، وما الذي يخفيه حسام؟ بل ما الذي يخفيه هذا النادي؟ يبدو أن هناك شيء مريب ينبغي أن يتم كشفه

، التحريات التي تحراها عنه أكدت مكوثه في المستشفى ليومين كاملين بسبب إصابته العنيفة، ترى هل حدثت هذه المباراة القتالية في هذا النادي أم كان مجرد قتال بينه وبين شخص آخر؟ لا بد من التحري حول هذه النقطة بالتحديد، سيبدأ من عند هذا المبنى المقام في المقطم، لا يدرى لماذا يشعره هذا المكان -على الرغم من أنه لم يره بعينيه من قبل إلا من خلال صورة فوتوغرافية- من أنه يخفي سرًا كبيرًا وراء مظهره القديم.

(أخبرنا مساعدك أنك تريدنا في الحال).

تطلع عصام إلى مساعده في لهفة، رمقهم بنظرة طويلة صامتة، كان يحاول كبت غضبه وحنقه ثم سألهم:

- ما الذي حدث مع حسام بالأمس؟

نكس إبراهيم رأسه أرضًا في خجل، غضب توفيق من ردة فعل زميله مما أورثه شعورًا بالتحدي، فتطلع إلى عيني رئيسه مباشرة قائلًا في جرأة:

- حاولنا التعامل مع هذا الوغد لكنه تعامل بعنف ثم فر واختفى.

قال عصام في غضب عصبي:

- وهل أمرتكم بالتعامل المباشر معه؟ لم آمركم إلا بالمراقبة فقط.

تبادل مساعديه النظرات ثم اندفع توفيق يقول:

- وهل دورنا مقتصر فقط على المراقبة دون التدخل؟

اخترقته نظرة عصام كالسيف، لكنه تجاهل ذلك وهو يردف:

- نحن لن نكتفي بلعب دور المشاهد وهذا الإرهابي يروح ويجيء أمام أعيننا دون أن نفعل شيئًا.

صاح عصام في صرامة:

- أنا أعلم جيدًا ما أفعله يا توفيق، إذا أمرتك بشيء فافعله دون نقاش.

صاح توفيق محتدًا:

- حتى ولو كان ضد مصلحة الوطن نفسه!

انعقد حاجبا المقدم بشدة، في حين لكزه إبراهيم في جنبه ليصمت، إلا أنه التفت إليه قائلًا في غضب:

- ألست أنت من أزلت الغمامة عن عيني وجعلتني أدرك أشياءً لم أنتبه إليها من قبل؟

كان هذا أكثر مما يتحمله عصام بالفعل، كانت العبارة تحمل بين طياتها اتهامات تمسه شخصيًا، تقدم ناحيته يسأله في صرامة غاضبة:

- ما الذي يعنيه كلامك هذا؟ أجب بوضوح ولا تخفي شيئًا.

قال توفيق دون تردد:

- نعم يا سيادة المقدم لن أخفي عنك شيئًا، إننا وبكل بساطة سألنا أنفسنا، لم يحاول المقدم عصام حماية حسام هذا، نظرنا إلى الأمر من كل الاتجاهات إلا أننا لم نصل إلا إلى نتيجة واحدة.

سأل عصام في غضب مكتوم:

- أي نتيجة؟

أجاب فى حسم:

- أنت يا سيادة المقدم، أنت متورط معهم حتى النخاع.

لا أحد يستطيع وصف ما شعر به عصام في تلك اللحظة، حتى المحققون أنفسهم لم يتهموه بهذا الإتهام الخطير، بل كانوا معه مثال للإحترام والتقدير لتاريخه الطويل الحافل بالوطنية، إنها بلا شك لحظة فارقة في حياته، بذل إرادته للتحكم بغضب هادر كالمحيط، عنيف كالإعصار، لكن عينيه ظلتا تلقي حممًا ملتهبة، خرج صوته منه كانهيار جبل من الصخور القاسية:

- هل تریاني حقًا متورطًا معهم؟

تراجع إبراهيم بجسده النحيف على الرغم منه أمام عينيه المتوثبتين، أما توفيق فظل على حالته من الثبات العجيب وقد أغراه جسده الضخم، وما توصل إليه من حقائق إلى أن يجيبه بجرأة وشجاعة:

- هذا ما تقوله الأدلة بوضوح يا سيادة المقدم.

قال في سخرية قاسية:

- لم لا تبلغا السلطات بما قلتاه لي الآن؟ من يعلم ربما تحصلوا على ترقيات استثنائية أو تصيرا أبطالًا أمام الشعب كله.

قال توفيق في جرأته التي يحسده زميله عليها:

- هذا ما ننوي فعله بالتحديد يا سيادة المقدم.

دفعهما عصام بيديه بغتة في عنف قائلًا بنبرة تهكم غاضبة:

- لماذا تضيعا الوقت إذًا؟ هيا قبل أن يغادر سيادة وزير الداخلية مكتبه وتخسرا فرصتكم، هيا.

دفعهما خارجًا في غلظة، حاول التحكم بأعصابه الثائرة بكل قوته، لكن الأمر كان يسوء أكثر كل ما مضى الوقت، لا بد أن ينهي هذه المهزلة التي ربما تذهب بتاريخه كله للأبد، لقد عادت إليه سلطته التي كان يحوزها، ولم يعد يقف في طريقة شيء.

****

تابع المدرب شوقي القتال الدائر بين حسام وأسعد، كان القتال قويًا عنيفًا يشف عن مقدرتهما القتالية ومهاراتهما في أساليب الدفاع والهجوم، قفز حسام بغتة يركل صدر خصمه الذي اندفع إلى الخلف، ثم سقط أرضًا وتدحرج في عنف، تابع المدرب كل هذا بوجه خال من الانفعالات، غادر بعدها المكان في هدوء وصمت، لم يعجب ذلك حسام فانعقد حاجباه في ضيق، لحق بمدربه يسأله:

- ألم يعجبك القتال يا كابتن شوقي؟

مط المدرب شفتيه في لا مبالاة وهو يجيب:

- بلى أعجبني، ماذا تريد الآن، هل أصفق لك أم أرقص طربًا؟

سأله حسام في احتجاج:

- لماذا هذه المعاملة القاسية؟

أشار المدرب بيديه محذرًا:

- لا تنسى أنك تقاتل في صالتي الخاصة دون رضاي.

قال حسام محتدًا:

- وكيف أستحق رضاك إذًا؟

- بأن تعود إلى عملك وتنسى أمر النزالات هذا تماما.

رد حسام في عناد:

- لن أعود إلى حياة الفقر والبؤس مرة أخرى.

قال المدرب في إلحاح:

- ما حدث معك لن يحدث مرة أخرى، صدقني.

رد عليه حسام في سرعة كأنما توقع حديثه هذا:

- وكيف تضمن ذلك؟

لم يجب المدرب وإن ظهر على وجهه علامات الضيق، فصاح حسام في احتداد:

- أريد أن أحيا كما كنت أتمنى دائمًا، ثريًا قويًا لا أحمل همًا لغد.

تنهد مدربه في عمق قبل أن يقول:

- في السابق كنت أخشى على حياتك من صراع غير متكافئ، أما الآن فأنا أخشى عليك من ما هو أخطر بكثير.

تطلع إليه حسام متسائلًا فاستطرد مدربه في حسم:

- نفسك، لا أريدك أن تخسر نفسك للأبد يا حسام.

قال حسام والحيرة تطل من خلجات وجهه:

- إنها مجرد مباريات قتالية تضمن لي المال الكافي لحياة سعيدة.

ابتسم المدرب في حزن وهو يهز رأسه نفيًا قائلًا:

- كلا، إنه طريق مغري، من دخله لا يستطيع الفكاك منه أبدًا، مهما ظن خلاف ذلك، هل تفهمني؟

حاول حسام فهم المغزى من كلامه، لكن عناده كان يضع على عينيه غشاوة سميكة، غادر مدربه المكان في سرعة تاركًا حسام خلفه يضرب أخماسًا في أسداس، محاولًا فهم مدربه وألغازه العجيبة، إنه هو نفسه قد جاهد جهاد الأبرار ليقيم هذا الصرح العظيم، وكان هدفه الوحيد من وراء ذلك هو كسب المال الوفير، فلم يحرم عليه ما أحله لنفسه؟ هز رأسه مستغربًا وهو يعاود تخيل مدى الثراء الذي سيتمتع به عندما يعود محترفًا من جديد.

****

شعر حسام بسعادة لا توصف وهو يحمل ابنه في حرص وحذر، لقد حارب من أجل تلك اللحظة وجازف بحياته، وها هو يضع حول عنقه قلادة الظفر. وضع ابنه على فراشه برفق، لحقت به زوجته وهي تتكأ على أبيها، انطلقت الزغاريد تملأ المنزل بهجة وسرورًا، جاء جيرانهم يباركون

رجوعهما بالسلامة ويتمنون لهما دوام الصحة والعافية، ساعد حسام زوجته حتى استقر جسدها على الفراش بجانب ابنها، حيث أبت إلا النوم مع ابنها على نفس الفراش، تركهما الجميع ليناما ملتحمين في فراش واحد، غادر حسام وهو يحاول السيطرة على انفعالاته أمام الجميع، ألقى جسده على أول أريكة صادفته بعد أن غادر الجميع إلا أسرته، ثم أغمض عينيه في راحة، أخيرًا سيرحم نفسه من خوفه وقلقه وانفعالاته، أحس بنشوة لا يدري كنهها، كأنما يريد أن يركض ويقفز كالأطفال، شعر أنه يسبح في عالم أثيرى جميل يهيم فيه حتى النخاع.

هل انتهت متاعبه وذهب القلق والخوف بلا رجعة؟ هل سيعود إلى حياته الطبيعية السابقة؟

طالعه وجه عصام الصارم فانعقد حاجباه في سخط، لماذا يصر على تعكير صفوه كلما راقه شيء؟ إنه كالصخرة التي تعترض طريقه، لن ينعم بشيء حتى يزيلها من أمامه، بل نسفها نسفًا إذا اقتضى الأمر، لن يعرض أسرته للخطر لمجرد أن هناك شخص لا يستطيع النوم جيدًا لأن يشعر أن كرامته قد أهيضت، إنه رجل أراد لابنه الحياة فما العيب في ذلك؟ هل سيظل أسير الخوف والقلق حتى يعف عنه غريمه؟!

انبعث رنين جرس الباب فانتزعه من بين أنياب أفكاره التي لا ترحم، طالعه وجه شاب يبتسم قائلًا:

- هذه الرسالة أمرت بتوصيلها لك شخصيًا.

كانت أول مرة يستلم حسام فيها رسالة من أحد، مجرد خطابًا ورقيًا ذكره بالماضي البعيد، لم تعد هذه الخطابات يعتمد عليها الناس في إرسال رسائلهم بعد أن استبدلوها بالرسائل الإلكترونية، استلم حسام الخطاب شاكرًا، أغلق الباب خلفه وهو ينظر إلى الخطاب في تسائل، كان قلبه يخفق في عنف وهو يحاول معرفة ما بداخله قبل أن يفضه، امتدت يده تفتحه في حذر، لا يدري لم أحس أن له علاقة بعصام، فتح الخطاب بأصابع مرتجفة لم تخف عن عين أبيه وأسرته، طالعته صفحة بيضاء إلا من جملة واحدة «انتظرني غدًا أيها المقاتل الصنديد في صالة القتال، ستكون بيننا مباراة مثيرة» انعقد حاجباه في دهشة، من ذا الذي يتحداه في سخرية واستخفاف؟ إنه هو ولا شك، رسالته واضحة، عبارته تمتلئ بالتحدي والعناد، بالسخرية والاستخفاف، بالغضب والانتقام. ملأ حسام صدره بالهواء، تصلبت عضلاته وكأنه يستعد للقتال في الحال، تمنى أن يكون قتال الغد قتالًا حاسمًا ينهي هذا الصراع من جذوره

- (ما الذي في تلك الرسالة يا بني؟)

التفت حسام إلى أبيه قائلًا وهو يطوي الرسالة:

- تهنئة من أحد الأصدقاء لعودة يحيى ونادية سالمين.

نظر إليه والده في شك كبير، ليس هذا رد فعل طبيعي على رسالة كهذه، لقد رأى وجهه يربد عندما طالعها، كان يبدو أن فيها تهديدًا صريحًا، لكنه يعلم أنه لن يطلع على ما بها ما دام حسام لا يرغب في هذا.

- أرجو يا بني أن يكون فيها الخير لك.

هز حسام رأسه وهو يقول في ابتسامة بدت غريبة:

- خيرًا يا أبي لا تقلق، رب ضارة نافعة.

كانت الحيرة تملأ وجوه أسرته والتساؤل يستفز الألسن، إلا أن أحدًا منهم لم يعقب، وهم يتطلعون إلى حسام الذي علت وجهه ابتسامة ارتياح كبيرة.

****

تململ هشام في فراشه ليلًا قبل أن يتطلع إلى الساعة ليجدها تشير إلى الواحدة والنصف صباحًا، بكى قلبه حزنًا على الأيام الخوالي، أيام كان النشاط قرينه الذي لا ينفك عنه، لم يكن يعرف للملل طريقًا ولا للبؤس مذهبًا، ذهبت هذه الأيام وولت وحل مكانها أيام الكسل وقلة الشغف، امتلأ جسده بالدهون وعقله بالظنون، لم يعد يجد للحياة طعمًا ولا للعمل مذاقًا، لم يعد يستحثه شيء قط، صار كالمحرك التالف الذي كلما أدرته تحشرج صوته وضعف عزمه وكف عن العمل، لم يشأ أن تصحو زوجته لتشاركه همومه وأفكاره، دلف إلى مكتبه، انتقى مقعده المفضل بجوار النافذة، أصدر المقعد صريرًا حادًا علامة الاحتجاج، قبل أن يقاوم في النهاية ثقل جسده بعناء، استرخى في جلسته وهو يتطلع إلى القمر الذي أوشك على الاكتمال، لم يكن الملل فقط دافعه للاستيقاظ بعد منتصف الليل والجلوس وحيدًا هكذا، كان هناك شيئًا أشد عليه من الملل ألف مرة، شيء جعله لا يستصيغ طعامًا منذ عدة أيام، وهو الذي لا يصبر عليه مهما سائت الظروف، كان ما يقلقه بشدة هي الرواية التي كتبها اعتمادًا على التفاصيل التي حكاها له رأفت، وبتوجيه من المقدم عصام نفسه، كان يرنو عصام من وراء ذلك معرفة أفراد العصابة كاملة، لكن ماذا لو كان أبطال الرواية بالفعل أبرياء! فهم لم يعتدوا على أحد، ولم يكن لهم أي طلبات سياسية كانت أو مالية، لماذا فعلوا ذلك إذًا ما لم يكن إجراء العملية هي الدافع الرئيسي بالفعل؟ إنه لم يسترح لحظة من التفكير، يشعر بخلايا جسده تنقسم وتتشعب، لم تكتف خلاياه وحدها بالانقسام، بل تبعتها روحه وقلبه وعقله، الكل انقسم داخله إلى جانبين متضادين، جزء منه يراهم أبطالًا، والآخر

يراهم مجرمين، الأول يراه هضمهم حقهم، والآخر يراه قد فعل ما أملاه عليه ضميره، زفر في ضيق وألم، لا يعرف إلى أي جانب ينتمي، إلى الرافض أم الداعم؟
تطلع إلى القمر عله يجد عنده سبيلًا لإنارة ظلمته، لكن القمر ظل صامتًا يكتفي بإنارة الكون كله من حوله، كأنه مجرد مصباح عملاق يضيء غرفة كبيرة بلا ملل، زفر في ضيق وهو يتسائل في حيرة:
- أين الحقيقة؟

****

توقفت السيارة في حدة قبل أن يزمع توفيق في النزول منها، أمسكه إبراهيم من ذراعه محاولًا إقناعه بالعدول عن إبلاغ اللواء مجدي عن نواياه تجاه المقدم عصام، لكن عناده منعه من سماع نصيحة زميله، جذب ذراعه من بين يديه واندفع بعزيمة لا تلين صاعدًا سلالم الإدارة، طرق الباب عدة مرات وانتظر لحظات ثم دلف إلى المكتب الفخم الدافئ، طالعه وجه اللواء مجدي جبريل من خلف مكتبه بنظرته الصارمة، ارتجف جسده لحظة بالرغم من ضخامته، شرع يتخيل ما يمكن أن يفعله رئيسه بعد سماعه لحديثه، كان يعلم أنه يخاطر بمهنته، بل يخاطر بمستقبله، لكنه الواجب تجاه وطنه، هناك من الدلائل ما يشير بقوة إلى تورط المقدم عصام، وهذا ليس بالأمر الهين، رجل كعصام بتاريخه الحافل وحياته التي يتغنى بها البعض، لا يمكن أن تطوله يد الشكوك.
كانت عينا اللواء ترنو إليه في تسائل واضح، فقال في صوت حاول أن يخرج قويًا لكنه خانه وخرج ضعيفًا خافتًا:
- سيادة اللواء، هناك أمر هام وجدت من الضروري محادثتك بشأنه.
ترك اللواء ما بيده وتطلع إليه مباشرة في اهتمام، فاستطرد:
- هناك أمر يخص المقدم عصام، يخص العملية الأخيرة.
لم ينبس اللواء بكلمة وإن دلت عيناه وحركة يده على نفاذ صبره، فأردف في سرعة مخافة غضب رئيسه:
- هناك بعض الأفعال الغريبة التي صدرت من المقدم عصام تجاه الجناة، والتي لم أجد لها تفسيرًا منطقيًا أبدًا.
ظهر الاهتمام جليًا على وجهه فاندفع توفيق يقول في حماس:
- هناك دلائل على تورط المقدم عصام مع مقتحمي المركز الطبي.
صاح اللواء في انزعاج:
- ماذا!

اندفع توفيق يقول بدون خوف يدفعه حماسه:
- أفعاله هي التي تثبت تورطه وإليك ما أعنيه يا سيادة اللواء:
أولًا: حدوث مقابلة بينه وبين المقتحمين بناءً على طلبه هو وليس المقتحمين، حيث قابلهم داخل المركز الطبي دون حماية ودون سلاح وكأنه يثق في أنهم لن يؤذوه.
ثانيًا: إقراره بأنهم ليسوا إرهابيين وإنما مجرد مجرمين على حد قوله، على الرغم من وجود دلائل كثيرة تثبت العكس.
ثالثًا: فرارهم بطريقة عجيبة بعد أن تركهم مباشرة، وكأن هناك تخطيط مسبق بالرغم من بساطة خطة الهروب وبديهيتها.
رابعًا: رفضه لأي تدخل مع حسام مجدي وهو الرجل الذي يتهمه سرًا بأنه وراء أحداث الاقتحام، والإكتفاء فقط بالمراقبة وإرسال التقارير.
خامسًا: عند مواجهته بتلك التهم سخر مني وطردني من مكتبه.
هذا كل ما عندي من شكوك تجاه المقدم عصام، وقد رأيت من واجبي إبلاغ سيادتكم حرصًا على سلامة الوطن والمواطنين.

لا يدري توفيق كم مر من الوقت وهو يتطلع إلى اللواء مجدي في ترقب، كان يبدو وكأن اللواء قد تحول إلى تمثال من الشمع وهو يحدق فيه بصرامة غاضبة، شعر بقلبه يرتجف بين ضلوعه وببرودة تسري في أطرافه، أحس برئته قد تضخمت ثم تقلصت فجأة ليسري فجأة تيار عنيف في جسده كله، تذكر فجأة تحذيرات زميله بأن كل هذه مجرد شكوك لا ترقى للإتهام، إلا أن غضبه من أن يكون ألعوبة في يد عصام وضع عصابة سوداء على عينيه، استسلم لمصيره القادم، تحركت شفتا اللواء لينطق شيئًاما لكنه أحجم في اللحظة الأخيرة، قام من مجلسه بجسده الممتلئ كدب غاضب خسر فريسة سهلة من بين يديه، سار في مكتبه ذهابًا وإيابًا واضعًا يديه خلف ظهره، تطلع توفيق إلى اللواء يستعطفه بالإسراع بالحكم حتى لو كان الحكم بإعدامه، اقترب منه اللواء في غضب أثار رعبه، تطلع إلى عينيه مباشرة قائلًا:

- هل تدرك معنى الاتهامات التي توجهها إلى عصام يا هذا؟
ابتلع توفيق ريقه في صعوبة، أجاب في صوت مرتجف:
- نعم يا سيادة اللواء، أدرك ذلك جيدًا وعندي من الأدلة...

قاطعه اللواء في عنف:

- أي أدلة أيها الغبي، تتهم عصام الذي أفنى حياته في حماية بلده وعرض نفسه لأخطار لم تراها حتى بعينيك، ثم تأتى إلي لتقول أن عندك أدلة وبراهين لتورط المقدم عصام؟!

أجابه توفيق في عناد:

- الأدلة يا سيدى هي من تحكم...

قاطعه اللواء في عنف أشد من الأول:

- صه، أنت لا تفقه شيئًا، ربما ما قلته يثبت تهوره، أما أن تتهمه بالتورط مع إرهابيين فهذا غير معقول.

قال توفيق محتدًا:

- إنه لا يراهم كذلك يا سيدي.

أجابه اللواء في حدة:

- ربما لديه من القرائن ما يشير إلى ذلك!

أصر توفيق بعناده على موقفه فقال في احتجاج:

- ولماذا يمنعنا من التحقيق في الأمر إذًا؟

أشار اللواء بإصبعه محذرًا:

- اسمع يا هذا، أنت لا تعرفه مثلما أعرفه، هو يعلم جيدًا ما يفعله ويجيده أيضًا، والدليل على ذلك تكليفك بمراقبة حسام هذا، وبالتأكيد كلف آخرين لمهمات مختلفة لنفس المهمة.

تذكر توفيق فجأة أن المقدم عصام قد كلف زملاءه الآخرين بمهمات مختلفة بالفعل، وأنهم قد وصلوا لمعلومات مهمة لم يستطع الإطلاع عليها لسريتها الشديدة، قال محاولًا التشبث بأمل أخير:

- هذا ليس رأيي وحدي يا سيادة اللواء، إنه رأي الرائد إبراهيم أيضًا.

سأله اللواء في قسوة:

- ولماذا لم يأت معك؟

ارتبك توفيق بطريقة لم تخف عن عين اللواء، فأردف الأخير في لهجة متوعدة:

- إذا أردت الآن اتخاذ إجراءات تأديبية فستكون معك إنت فقط، هل تفهم؟

انعقد حاجبا توفيق في شدة، هل سيكون هذا مصيره لخوفه على مصير وطنه، هل كان يجب عليه أن يصمت ويضع يده على عينيه محاولًا السير مع التيار، تيار المهزومين الخائفين مثل إبراهيم وغيره؟ قطع اللواء أفكاره وهو يشير بيده محذرًا:

- لم أشأ اتخاذ أي إجراءات ضدك لتاريخك معنا، لكن لو حدث مرة أخرى...

لم يحتاج لإكمال عبارته؛ فقد كان المعنى واضحًا للغاية، أشار إليه اللواء بالانصراف، فانصرف سريعًا وهو يحمد الله على خروجه بدون أن توجه له تهمة تهدم تاريخه وتحطم مستقبله.

أخذ اللواء يفكر في كل كلمة سمعها؛ فهذه الاتهامات ليست هينة وخاصة إذا كانت موجهة لرجل مثل عصام، الحذر واجب ولا بد أن يغير طريقته في التعامل مع رجاله، إنه لا يفهم حتى هذه اللحظة كيف هرب المقتحمون؟ ولماذا حرص عصام على مقابلتهم بنفسه وجهًا لوجه؟ ولماذا يحرص عصام على التعامل مع هذه القضية بالذات بنفسه دون سواه؟ حتى وهو موقوف يتشبث بها كالأسد عندما يتشبث بفريسته، ظن أنه يريد رد كرامته بحلها بمفرده، إلا أن الأمر ربما يبدو أكبر من ذلك، جلس على مكتبه مرة أخرى ليجري اتصالًا بأحد رجاله لتكليفه بمهمة ضرورية وسريعة للغاية.

****

حضر حسام إلى صالة القتال مبكرًا كعادته بعد أن اطمئن على زوجته وابنه، تسلل خارجًا دون أن تلحظه زوجته، ما إن وصل النادي حتى غير ملابسه ثم بدأ في تدريبات الإحماء بنشاط وبأس؛ كان يستعد لمباراة يجهل قدرات غريمه فيها، غريم تحداه في رسالة تفيض بالتحدي والعداوة، إذا صدقت غريزته فليس إلا شخصًا واحدًا يلجأ إلى مواجهته والضغط عليه حتى تسقط منه الأخطاء، وعندئذ يقبض على عنقه ويعتصره عصرا، امتلأ قلب حسام عزيمة وتحدي، إنه يعشق التحديات منذ صغره، لا يعلم متى سيأتي لكنه سينتظر، لا بد أن يكون مستعدًا؛ فخصم كهذا لا يستهان به، هكذا علمته الحياة.

أنهى تدريباته وظل ينتظر وينتظر دون جدوى، انعقد حاجباه في سخط، أتراه يهزأ به! لكن رجلًا كعصام لم يكن ليفعل هذا، ربما لن يأت في الصباح الباكر، ربما يحب المواجهات المسائية، ارتاح قلبه لهذا التفسير، فهو لا يحب أن يقلل من شأنه أحد، ارتدى ملابسه على عجل وانصرف عائدًا إلى منزله خائب الرجا؛ كان يتمنى لو حدث اللقاء وانتهى، إنه يثق في فوزه على غريمه تمامًا، ربما ليس مستعدًا بعد مع مقاتلين العالم السفلي، لكنه بالتأكيد يستطيع التغلب على رجل مثل عصام مهما كانت قوته، اتجه إلى الغرفة التي تقيم فيها نادية ويحيى، قبل أن يلمس بابها

انطلق رنين الجرس فقفل راجعًا، فتح الباب فطالعه نفس الشاب الذي سلمه الرسالة بالأمس، سلمه الشاب رسالة أخرى قبل أن يستأذن للإنصراف، استوقفه حسام بإشارة من يده، فتح الرسالة فطالعه عبارة «المباراة اليوم، استعد جيدًا أيها المقاتل الصنديد، تدرب جيدًا» سأل حسام الشاب في صرامة:

- من أرسلك؟

هز الشاب كتفيه في بساطة قائلًا:

- لا أدري، مهمتي هي توصيل الرسائل وليس معرفة هوية مرسلها.

لم يعجب حسام أسلوب الشاب فأجابه في صرامة:

- حسنًا يا هذا، أخبر من أرسلك رسالة شفوية، قل له «أيًا كنت، فأنا منتظرك على أحر من الجمر».

****

انطلق إبراهيم بسيارة الشرطة التي يقودها في سرعة، في حين جلس بجواره توفيق صامتًا، كأنه قد تحول إلى تمثال برونزي بارد حل محل الجسد المشتعل غضبًا وسخطًا، ظل صامتًا على الرغم من محاولات إبراهيم العديدة لجعله يتحدث عما جرى بينه وبين اللواء مجدي، لكن يبدو أنه قد أصيب بصدمة أوقفت لسانه عن النطق، وأوقفت جسده عن الحركة، غمغم إبراهيم في ضيق:

- لقد حذرتك من مغبة ذلك ولكنك لم تلتفت إلي.

أشاح توفيق بوجهه بعيدًا؛ كان يتجنب الدخول في مناقشات قد تكون نهايتها الإقتتال، لم يسامحه بعد بسبب جبنه وتخاذله، لو كان معه هناك لكان موقفه أفضل حتمًا، لكنه واجه العاصفة هناك وحده، زفر في قوة قبل أن يقول:

- سأهبط هنا، توقف.
- لم تنتهي خدمتك بعد، ما زالت هناك ساعتين.

صاح في صرامة:

- انزلني هنا ولتفعل ما تشاء، هيا.

توقف إبراهيم بغتة، جعل السيارات خلفه تزأر معترضة في صمت دون أن يجرأ أصحابها إطلاق أبواق التنبيه للاعتراض، ترجل توفيق من السيارة، أغلق بابها في حدة، ثم انطلق يهيم على وجهه، تابعه زميله من مرآة السيارة وهو يغمغم:

- ما زلت تحيا في دنيا المثالية والأحلام الوردية.

قالها وهو ينطلق بسيارته مطلقًا البوق المميز لها.

****

لم تكد الساعة تشير إلى الثالثة عصرًا حتى كان المقدم فتحي عبد المجيد يدلف إلى مكتب اللواء مجدى جبريل، أغلق بابه خلفه في هدوء ثم ألقى التحية باحترام أمام رئيسه الذي سأله:

- ما رأيك في المقدم عصام الجلاد؟ فقد عملت معه من قبل كثيرا.

كان الاستغراب يملأ وجهه وهو يجيب:

- المقدم عصام من أفضل من عملت معهم منذ التحاقي بالشرطة، فهو مثال للإنضباط في العمل ولقد تعلمت منه الكثير.

صمت اللواء وهو يتطلع إلى اللا مكان ثم قال:

- ماذا لو كان المقدم عصام متورطًا في آخر قضاياه؟

سأله المقدم في دهشة كبيرة:

- اقتحام المركز الطبي؟

هز اللواء مجدي رأسه إيجابًا وهو يضع ولاعته على المكتب، عاد بظهره إلى الوراء وهو ينفث دخان سيجارته قائلًا في حزم:

- هناك من الدلائل ما يثبت هذا الاتهام.

تسائل المقدم في ذهول:

- كيف يا سيادة اللواء؟

أشار اللواء بيده وهو يقول في ضيق:

- لم يكن هذا كلامي منذ البداية وإنما كلام أحد مساعديه الذي أتى إلي اليوم وألقى بما يثير شكه من ناحية المقدم عصام، ولولا أنه أجاب عن تساؤلات في أعماقي لم أكن أجد لها إجابة لتجاهلت كل ما قيل، إلا أنها دلائل قوية يجب الالتفات إليها.
- وما هي هذه الدلائل يا سيدى؟

أدلى إليه اللواء بكل ما قاله الرائد توفيق، استمع إليه المقدم فتحي بكيانه غير مصدق لما يسمع، لم تكن الشكوك ترقى إلى مستوى البراهين، ولكنها شكوك خطيرة للغاية، ولو صحت هذه الشكوك ستكون مفاجئة لجهاز الشرطة كله

قال المقدم فتحي:

- ولما لا نلجأ إلى الأسلوب المباشر يا سيادة اللواء؟

سأل اللواء فى اقتضاب:

- أي أسلوب مباشر؟

- نسأل المقدم عصام مباشرة عن كل تساؤلاتنا ونرى بما يجيب.

أشار اللواء بيده قائلًا:

- لقد واجهه بالفعل الرائد توفيق فلم يحفل بإجابته، اكتفى بطرده من المكان هو والرائد إبراهيم أيضًا.
- ربما لم يحفل لأنها لم تأتي من مستوى أعلى منه يا سيادة اللواء.

صمت اللواء مفكرًا للحظات قبل أن يشير بإصبعه:

- لا، لا ينبغي أن يعرف أننا نشك فيه، فلو كان متورطًا بالفعل وهذا ما أشك فيه من الأساس فسيأخذ حذره ويغير خطته.

ابتسم المقدم فتحي في ارتياح وهو يقول:

- جميل أن الأمر مجرد شك عندك يا سيادة اللواء.

مط اللواء شفتيه مجيبًا:

- الشكوك لا ترقى لمستوى البراهين ولكن لا ينبغي أن نستهين بها أيضا.

أجابه المقدم فتحي وابتسامته تتسع:

- أنا تحت أمر سيادتك.
- سأكلفك بمهمة تتبع أفراد الاقتحام هؤلاء، وسأكلف عصام بمهمة أخرى بعيدة ستلهيه تمامًا عن المهمة الحالية.

تسائل فتحي في اهتمام حائر:

- ألن يشك في الأمر يا سيدي؟
- ربما ولكنه لن يعترض.
- رائع أنك ما زلت تثق فيه يا سيادة اللواء.
- أنا أثق في إمكانياته وخبرته، أما إخلاصه وضميره فهذا أمر لم أبت فيه بعد.

قام المقدم فتحي قائلًا في احترام:

- اسمح لي بالاستئذان؛ فأنا أريد الاطلاع بشكل دقيق على أوراق القضية.

غادر المكتب في سرعة وحزم تاركًا اللواء خلفه يفكر فيما ستكشفه الأيام القليلة القادمة.

****

استيقظت نادية تحدق في السقف لبرهة، ثم مالت على جانبها الأيمن تتطلع إلى ابنها النائم في سعادة غامرة ملأت روحها فرحًا وبشرًا، استعاد عقلها تفاصيل ما قبل العملية وما واجهوه من تحديات عسيرة تجاوزوها بصعوبة

بالغة، تنهدت في ارتياح غامر تسلل إلى أعماق خلاياها في نعومة آسرة، تذكرت كم قاسى والده ليحافظ على حياته، كيف جازف بكل شيء يملكه حتى عرض نفسه للخطر، إنها الأبوة في أجمل معانيها وأسمى أشكالها، لا تدري لماذا شعرت بالخطر بغتة تجاهه، نفس الإحساس الذي غمرها عندما قاتل قتاله الأخير، ارتعش جسدها الضعيف ونادت اسمه في وهن:

- حسام أين أنت؟

صوتها الضعيف لم يبلغ خارج الغرفة، حاولت القيام بمفردها لكن لم تستطع، أصابتها محاولاتها للقيام من الفراش بالضعف والإنهاك، أرخت رأسها على الوسادة، حاولت طرد الخاطر الذي يجاهد في احتلال عقلها وبذر بذور الخوف والقلق في نفسها من دون رحمة، ربما يكون كل هذا هراءً محضًا، ربما تكون وساوس ألقاها الشيطان في نفسها، أراحها هذا بعض الشيء، إلا أن خاطرًا خطر لها، ماذا لو كان ما تشعر به حقيقي؟ ماذا لو كان الخطر يحوم حول حسام ليقتنصه في أي لحظة من جديد؟ إنها تعلم أن الأمر لم ينتهي بعد، لا تنسى محاولات المقدم عصام المستمرة في انتزاع أية معلومات منها قد تدين حسام في قضية الاقتحام، تنهدت هذه المرة في مرارة قاتلة، متى يستريحون من هذا الهم القاتل؟

وبقي السؤال معلقًا في رأسها، ويزيدها كمدًا وحزنًا وقهرًا.

****

فوجئ الكابتن شوقي بحسام يدلف إلى النادي في غير موعده المعتاد، ألقى حسام التحية على مدربه الذي كان التساؤل يظهر على صفحة وجهه واضحًا، رد حسام على تساؤله الصامت:

- الليلة ستكون مباراة حاسمة بيني وبين المقدم عصام.

انعقد حاجبا المدرب واحتقن وجهه في انفعال صائحًا:

- ماذا!

- لقد تحداني وأنا قبلت التحدي.

أشاح المدرب بيده قائلًا في غضب:

- من سمح لك بإقامة مباراة هنا على أرض النادي دون إذني؟

سأله حسام في اعتراض:

- وهل كنت تنتظر مني أن أفر من مواجهته؟

أجابه المدرب في تهكم غاضب:

- بل أنتظر أن تقتلا بعضكما هنا من أجل تصفية حساباتكم.

رد حسام في صرامة غاضبة:

- لو رفضت عرضه الآن سيكون هذا بمثابة انتصاره على.
أجابه المدرب في لهجة مماثلة:
- ولو وافقت على قتالكم أيضًا سيكون هذا بمثابة جريمة قتل مع سبق الإصرار.
تسائل حسام في حيرة غاضبة:
- أنا لا أفهم، ما الذي سيضيرك إذا تقاتلنا هنا؟
قال المدرب في لهجة لا تقبل النقاش:
- قلت لك لن أسمح بالقتال هنا، ولا تناقشني في هذا مرة أخرى.
- (يؤسفني أن تخالف كلمتك أمام رجالك، لكن القتال سيحدث الآن، شئت أم أبيت)
التفت الجميع إلى مصدر الصوت، فطالعهم وجه المقدم عصام بجسده القوي، يقف حوله ثلاثة من مساعديه في تحدٍ واضح، اكفهر وجه المدرب شوقي وهو يحدق في عصام ورجاله، شد حسام قامته في اعتداد واضح، طالع كل منهما الآخر في صمت قبل أن يقطعه عصام قائلًا في لهجة عجيبة جمعت بين التهكم والصرامة:
- هل أنت مستعد يا سيد حسام؟
أجابه حسام في هدوء أقرب إلى البرود:
- أنا أنتظرك منذ الأمس على أحر من الجمر يا سيادة المقدم.
حدجه عصام بنظرة نارية ثم قال آمرًا الجميع في صرامة:
- هيا أريد حلبة جاهزة الآن.
كاد شوقي أن يعترض، لكن عصام رجلًا جريحًا وقد عادت إليه سلطته كاملة، وقد يهدم هذا الصرح الذي بناه بعرقه وماله، صاح المدرب في حدة:
- هيا كما سمعتم، جهزوا حلبة الملاكمة للمبارة الآن، هيا
ابتسم عصام في سخرية واضحة، كان يعلم أنه لن يجرؤ على الإعتراض وإلا هدم المعبد على رؤوس الجميع، وجه حسام إلى غريمه سؤالًا ألح عليه:
- ماذا لو قضيت عليك، هل سأعاقب على هذا؟
قال عصام في تهكم:
- لا أحد يعرف بأمر قتالي هذا سوى رجالي الثلاثة، اطمئن.
هز حسام كتفيه في لا مبالاة قائلًا:
- كل ما في الأمر أننى أريد قتالًا عادلًا.

اتجها إلى حلبة القتال التي التف حولها المقاتلون في فضول، صعدا الغريمان إلى الحلبة بعد أن خلعا ستراتهم وقمصانهم وأحذيتهم، لم يلتفتا إلى برودة الجو التي تئن منها العظام، بل إنهما كانا يشعران بحرارة تكاد تذيب جلودهم وتهرس عظامهم، حرارة المواجهة التي لن تحدث أي فارق في القضية الحالية، ولكنها ستحدث فارقًا كبيرًا في نفس كل منهما.

****

تلقى اللواء مجدي اتصالًا هاتفيًا من أحد رجاله، يخبره أن عصام سيبدأ قتالًا مع حسام في صالة قتال سرية تقع في المقطم، أنهى اللواء الاتصال وقد ازداد غضبه ألف مرة؛ كان يعلم أن عصام متهورًا للغاية، لكنه لم يتخيل أن يبلغ تهوره حد القتال، لقد خسر عصام نفسه رغبة في الانتقام، أجرى اللواء اتصالًا بمساعده الجديد، طالبًا منه الذهاب للقبض على المقدم عصام والشخص الآخر الذي يتهمه عصام في عملية الاقتحام، لبى المقدم فتحي الأمر في الحال، خشي أن يسبقه اللواء مجدي إلى هناك فيكون في نظره مقصرًا، إنها فرصته في أن يصبح من رجال اللواء مجدي المقربين، فرصته في ترقية استثنائية، سيكون الضابط الذي حل اللغز الكبير، أحاط زهوه عينيه بعصابة سميكة سوداء، إنه يعترف في قرارة نفسه بالفرح والبطر، بالرغم من أنه لم يصدق حتى الآن تورط عصام مع الإرهابيين، لكنه لا يستطيع كبح جماح نفسه في استغلال فرصة كهذه ربما لن تتكرر في عمره كله، كانت نفسه تلك اللحظة أشبه ما يكون بسيل عارم انقض من أعلى ليغرق السهل بأكمله.

****

وقفا يتطلعان إلى بعضهما في تحدٍ واستخفاف، علا صياح المقاتلين في حماس، لكن الغريمين لم يحركا ساكنًا، تبادلا النظرات في صمت ثم قال عصام في سخرية صارمة:

- استعد لتواجه أبشع كوابيسك دفعة واحدة.

قالها ثم انقض على حسام بكل قوته، تراجع حسام أمام قوة انقضاضته في مرونة عالية، قبل أن يتفادى لكمة قاتلة صوبها إليه عصام في مهارة، حاول عصام البدء بالهجوم كما تعود دائمًا ليفت عضد خصومه، لكن يبدو أن خصمه هذه المرة مختلفًا، فعلى الرغم من قوة وسرعة الهجوم إلا أنه لم ينجح في الوصول إلى جسد حسام بعد، أدرك عصام ساعتها أن الأمر لن يكون سهلًا، لم يمهله حسام ليستطرد أفكاره، فقد انقض عليه بلكمات

خاطفة نجحت إحداها في إصابته في وجهه، شعر عصام بالإهانة لنجاح غريمه في إصابته، استعد للانقضاض مرة أخرى لكن حسام باغته بهجوم خاطف آخر، كانت ضربات حسام قوية سريعة رشيقة للغاية، حاول عصام صدها بكلتا يديه إلا أن حسام كان أسرع منه كثيرًا، لذا نجح في إصابته في أكثر من موضع، لم تكن هذه الضربات على الرغم من قوتها لتنجح في هزيمته، لكنه شعر كأنه أصيب في كرامته، هياج المقاتلين الذين يلتقون حول الحلبة يثبت نجاح حسام حتى الآن، مسح عصام الدم من جانب فمه، ثم قال في غضب صارم:

- الآن بدأت ساعة القتال الحقيقي.

قالها ثم هجم على غريمه بكل قوته، اشتبكا الغريمان في صراع شرس رهيب، أبديا فيه كل صنوف القتال الذي تعلماه في حياتهما، نجح كل منهما في إصابة نده إصابات كانت تكفي لهزيمة واستسلام مقاتلًا عاديًا، كانت دهشة حسام كبيرة، فلم يكن يتخيل قدرة رجل في مثل سن غريمه على القتال بهذا البأس والصبر، لم يكن يدرك أن الحنق الذي يشعر به عصام في أعماق نفسه، والغضب الذي تغلي منه دمائه كانا هما الحافز للاستمرار بالقتال حتى ربع ساعة كاملة، فعلى الرغم من كم اللكمات التي تلقاها عصام على فكه وأنفه إلا أنه ظل ثابتًا راسخًا كالجبل، لم يتزحزح عن مكانه قيد أنملة، وكأنه يدافع عن أرض مملكته وميراث آبائه، توقف القتال بعد ربع ساعة من بدأ القتال، لم يتوقفا لانتهاء زمن المباراة ولا لتدخل الحكم، وإنما توقفا رغبة من المقاتلين لالتقاط أنفاسهما بسبب ما حل بهما من الإنهاك، طال توقفهما لدقيقة كاملة حتى هدأت أنفاسهما، طلب منهما الحكم إنهاء المباراة أو إكمالها، نظرا لبعضهما البعض في تسائل خفي؛ فلم يعد بهما رغبة حقيقية للقتال، لكن أحدًا منهما لم يكن ليطلب ذلك أبدًا، قرأ ذلك المدرب شوقي في عيونهما وأدرك أنهما شبعا لكمًا وركلًا وضربًا، إنه يعترف أنها من أكثر المباريات إثارة رآها في حياته، مباراة وقودها الانتقام والدفاع عما يراه كل منهما حقًا له، لقد سجل المباراة بكاميرا مخفاة في مهارة؛ عادة قديمة لم يستطع تركها، شعر بضرورة تدخله في الوقت المناسب فتدخل صائحًا:

- كفى، لقد تقاتلتما بشجاعة يشهد بها الجميع فعلام الاستمرار؟

تواصلت عيناهما في تحدٍ واضح، كان كلًا منهما يبغي التوقف، لكن كبرهما منعهما من طلب ذلك، قال عصام في سخرية:

- هل تخشى على مقاتلك من الهزيمة؟

رد عليه حسام بسخرية مماثلة:

- ربما يخشى عليك أنت؛ فعمرك لم يعد يحتمل مثل هذه النزالات.
استفزت الجملة عصام كثيرًا فرد في سخرية وتهكم:
- إذًا فأنت تود أن نستمر.
أجابه حسام في لهجة مماثلة:
- هذا أقصى ما أتمناه الآن
مط عصام شفتيه وهو يجيب:
- حسنًا كما تتمنى
وانقض عليه عصام في تهور ليحسم القتال كما تعود دائمًا.
****

انطلق المقدم فتحي بسيارته بأقصى سرعة، تتبعه سيارة قوات الشرطة الكبيرة ببوقها المميز، زاد من سرعة سيارته فلم يكن ليصبر على الصورة التي رسمها لنفسه في خياله، صورته وهو يلقي القبض على الجميع بما فيهم المقدم عصام نفسه، أنكر نفسه أن يفعل ذلك مع من كان يومًا رئيسه، امتعض عند تخيله وهو يلقي القبض على أستاذه، إنه الطمع ولا شك الذي يعمي عين صاحبه، لا ينبغي أن يتعامل مع عصام بهذه الطريقة، كيف يساوي بينه وبين المجرمين! ربما يكون سيادة اللواء غاضبًا بعض الشيء فاتخذ قرارًا أرعنًا دون تفكير، لكنه لن يستطيع فعل هذا الشيء المشين بنفسه، حتى لو كانت هذه التهم ترقى لمستوى القرآئن، لو كان مكانه ساعة حصار المركز الطبي لسقط في نفس الفخ، الأوغاد أعدوا العدة ببراعة وخططوا لكل شيء منذ البداية، فهم لم يختاروا المكان جزافًا بل دبروا وخططوا وبرعوا أيضًا في تنفيذ خطتهم، ومن يمكنه كشف أمر كهذا؟!
قرر الإنتظار مع قواته خارج صالة القتال حتى يحضر اللواء قريبًا، يعلم أنه ربما يغضب ويسخط لكن يكفي أن ضميره مستريح، لم تمضي دقائق حتى حضر اللواء في سيارته المميزة، كان الاستنكار باديًا على وجهه، ارتبك المقدم قائلًا:
- رأيت أن أنتظرك حتى تلقي القبض عليه بنفسك.
أدرك اللواء خجله من إلقاء القبض على رئيسه السابق، لم يمنعه ذلك من التلويح بيده في سخط صائحًا بوجه محتقن:
- ألقوا القبض على الجميع، هيا.
اندفع الجميع لتنفيذ الأمر على رأسهم المقدم فتحي شاهرًا مسدسه، ما إن اقتحموا صالة القتال حتى سمعوا أصوات هياج تأتي من أعلى، انطلقوا

صاعدين السلالم ناحية الضجيج ليفاجأوا بقتال يدور في شراسة وقسوة، صرخ المقدم فتحي في صرامة:

- ليتوقف الجميع، فورًا.

لم يسمعه أحد بسبب انشغالهم بالقتال الدائر، وجه سلاحه للأعلى وأطلق النار، دوى صوت إطلاق الرصاص في المكان المغلق كالقنبلة، توقفا المقاتلان على الفور والدماء تسيل من أنوفهم، التفت الجميع ليصطدموا بمنظر قوات الشرطة التي تحيط بهم إحاطة الأغلال بالرقاب، أعطى هذا التوقف للغريمين الفرصة لالتقاط الأنفاس من جديد.

- ما الذي دفعكم للمجيء إلى هنا في هذا الوقت؟

كان هذا سؤال المقدم عصام الذي ملأته الدهشة حتى الأعماق، انتظر الإجابة تخرج من فم المقدم فتحي، لكن الإجابة جائته من فم آخر لم يتوقعه على الإطلاق، اللواء مجدي بنفسه الذي قال في صرامة:

- سيتم القبض على الجميع دون استثناء.

تدخل المدرب قائلًا في سرعة سببها الخوف:

- نحن لم نفعل شيئًا يخالف القانون، إنها مجرد صالة للقتال تقام فيها مباريات للملاكمة ورياضات أخرى.

أجابه في صرامة دون أن يلتفت له:

- هذا ما سوف نتأكد منه في التحقيقات.

ثم وجه كلامه إلى المقدم فتحي قائلًا في لهجة آمرة:

- هيا ألق القبض على الجميع ولا تستثني أحدًا.

اندفع رجال الشرطة يلقون القبض على الجميع، دفعوهم أمامهم نزولًا على درجات السلم، لم يجد حسام الوقت لمسح الدماء من وجهه أو حتى لارتداء ملابسه، في حين تقدم المقدم فتحي تجاه رئيسه السابق قائلًا في خجل:

- آسف يا سيادة المقدم، مضطر لإطاعة الأوامر.

فوجئ عصام بمساعده السابق يحاول وضع يده في القيد الحديدي، نزع عصام يده في عنف صائحًا في غضب:

- هل جننت يا فتحي كيف...

بتر اللواء مجدي عبارته بصرامته المعهودة:

- أنا من أمرته بالقبض على الجميع يا عصام، الجميع بلا استثناء.

تسائل عصام في ذهول:

- يلقي القبض علي أنا، كيف؟!

وضع اللواء يده خلف ظهره وهو يتخذ وقفة عسكرية صارمة، على الرغم من بدانته الواضحة، قائلًا في لهجة لا تقبل النقاش:

- ستعرف فيما بعد لم اتخذت هذا القرار بالذات.
صاح عصام في سخط متناسيًا فارق الرتب:
- كيف يحدث هذا معي كأننى أحد المجرمين يا سيادة اللواء؟
قال اللواء هذه المرة في برود:
- ربما تكون منهم بالفعل.
لم يشعر عصام في حياته كلها بمثل ما شعر به الآن، مزيج من المشاعر ربما لم يحظى مخلوق بتجربتها، الذهول والدهشة، الصدمة والإعتراض، الإحباط واليأس، المرارة والحنق. كلها مشاعر اجتمعت لتصنع قنبلة نووية انفجرت في قلبه بمنتهى العنف ليتسائل في ضعف وخزي:
- هل تعني ما تقول حقًا يا سيادة اللواء؟
استمر اللواء في وقفته العسكرية قائلًا في لا مبالة قاتلة:
- بالتأكيد يا عصام.
سأله عصام في يأس:
- هل ستضع يدي في الأغلال كالمجرمين، هل نسيت تاريخي كله في لحظة من فورات غضبك لتلقي بي على هذا النحو المزري؟!
حدجة اللواء بنظرة نارية قائلًا في غضب:
- لأنك نسيت مسؤلياتك وأخذت تبحث عن ثأر مزيف.
قال عصام في حيرة صادقة:
- أنا لا أفهم شيئًا يا سيدى، ماذا تقصد؟
- ستفهم كل شيء غدًا ساعة التحقيقات، هيا خذه يا فتحي.
تدخل فتحي قائلًا في رجاء:
- لا داع لوضع يده في الأغلال يا سيادة اللواء، ستسيء هذه الصورة لجهاز الشرطة كله، سيجلس بجواري في سيارتي وسأكون مسئولًا عنه حتى تسليمه بنفسي غدًا للجنة التحقيقات.
أجاب اللواء في صرامة حادة:
- لو أفلت منك سأتهمك بالتورط معه وستحاسب على ذلك حسابًا عسيرًا، هل تعي ذلك؟
أومأ فتحي برأسه موافقًا دون تردد، اندفع اللواء في سرعة مغادرًا المكان، التفت عصام إلى فتحي يشكره على دماثة خلقه لإنقاذه من هذا الموقف الحرج، لم يكن يبالغ في ثنائه مطلقًا؛ فقد أخرجه من ورطة كانت لتهدم سمعته للأبد، أشار فتحي بيده لعصام احترامًا، سار الأخير أمامه ماسحًا بمنديله دماء تناثرت على وجهه وخيطًا كثيفًا من الدم سال على جانب أنفه، ركب بجواره السيارة، ثم نطلقا ليلحقا بالجميع.

****

ما توقعه هشام كان صحيحًا، فقد نشرت أولى طبعات الرواية في اليوم المحدد مسبقًا، كان لاسم الكاتب وسمعته الجيدة الفضل في سرعة النشر من جهة، واجتذاب عدد كبير من القراء من جهة أخرى، انتشرت أعداد الطبعة الأولى في عدد من المكتبات المشهورة، وفي واحدة منهم ترجل هشام من سيارته الصغيرة، وتطلع بمزيج من الاهتمام والقلق إلى الرواية متوسطة الحجم وغلافها البسيط الرائع، لم تدم سعادته طويلًا فقد أصابها خنجرًا مسمومًا قضى عليها في الحال، كان مصدر رعبه جملة مكتوبة في نصف سطر أسفل الغلاف الأمامي تقول «هذه الرواية مبنية على أحداث واقعية»، بح صوته فلم يستطع نطقها بصوت واضح، هذا أكبر دليل على صلته بهؤلاء الإرهابيين، يا لها من مصيبة، بل هي كارثة بكل المقاييس؛ سينتزع من بيته انتزاعًا وسيقدم للتحقيقات التي لا ترحم، إنه لا يريد أن يعيش تجربة سجنه المريرة مرة أخرى، ارتعش جسده كله من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه، يتمنى الموت على أن يحيا هذه التجربة مرة أخرى؛ فالموت بكرامة خير من الحياة بعذاب وذلة، سينكر صلته بهم تماما، ولكن كيف سيخدعهم بهذا الكلام الساذج؟ كيف سينفي صلته والرواية مكتوبة بيده وممهورة بتوقيعه؟ في السابق كان الأمر مجرد رواية يستطيع أن يتنصل منها بحجة أنها من صنع خياله، أما الآن فالأمر أشبه ببرهان ساطع لا فكاك منه، سيتحمل معهم المسئولية كاملة، ألقى نسخة الرواية في إهمال، حشر جسده في سيارته ثم انطلق بها على الفور إلى دار النشر، يريد أن يعرف من ألقاه في غياهب الجب ثم راح وتركه، أتراه رأفت أورده مورد التهلكة ليظفر بتحقيق هدفه؟ هل جعل منه وقودًا لإشعال ثورته؟

كان ينطلق بسيارته بسرعة كبيرة لم يسير بمثلها حتى في شرخ شبابه، لم يعد يبال بخطورة ذلك على حياته، بغتة اعترضته سيارة نقل كبيرة تسير عكس الإتجاه القانوني، جاء الأمر مباغتًا بحق، اشتعل في نفسه حب البقاء، ضخ الأدرينالين في عروقه بكميات تكفي لجعل خنزيرًا صغيرًا يهاجم بضراوة لبؤة مفترسة تريد صنع عشاء دسم منه، انطلقت أداة التنبيه بقوة من السيارة الكبيرة بعدما فوجئ السائق بسيارة هشام الصغيرة أمامه مباشرة، أدار هشام يائسًا مقود السيارة إلى اليمين في حدة حتى احتك جانب السيارة بالسور الفاصل، لتصدر شرارات قوية كأنها شهب حارقة، مرت بجانبه سيارة النقل كالسيل العرم، نجح هشام أخيرًا في العبور

بمعجزة ونجا من الموت بأعجوبة، ضغط بقدمه على المكبح في انفعال شديد حتى توقفت السيارة و إطاراتها تصرخ في غيظ واعتراض، ترجل من السيارة في استعجال دون النظر إلى السيارة القادمة التي كادت تدهسه، لولا مهارة قائدها الذي أطلق سبابًا عنيفًا، انطلق هشام يركض إلى الرصيف المقابل كأنما يهرب من وحش مفترس، جلس على ركبتيه ليضبط أنفاسه المتلاحقة، ظل على تلك الحال لدقيقة كاملة حتى هدأت أنفاسه وسكنت، لكن نفسه لم تسكن أبدًا؛ لقد نجا من الموت بمعجزة، و لكن ما زال أمامه محاولة النجاة من السجن والعذاب، قام من جلسته بصعوبة بالغة، رجع إلى سيارته في بطء وكأنما تقدم به العمر عشر سنوات، كان الإنفعال قد قضى على البقية الباقية من طاقته، بحث في جيب بنطاله عن حبوب الضغط فلم يجدها، انطلق بسيارته قاصدًا دار النشر من جديد، كان يتمنى أن يجد هناك الجواب، هذا هو أمله الأخير لتبرئة نفسه، لم تمض ربع الساعة حتى كان يقتحم دار النشر غير هياب، لم يأبه لرجل الأمن الذي طلب منه الانتظار، توجه مباشرة لحجرة المدير الذي فوجئ بهشام يقتحم مكتبه في عنف، هب المدير واقفًا بجسده النحيل فزعا، أمسك هشام نسخة من الرواية الموضوعة على مكتبه ، رفعها مقابل وجهه قائلًا في غيظ:

- من طلب منك أن تذيل الغلاف بهذه الجملة الكاذبة؟

أجاب المدير في تلعثم:

- أية عبارة يا هشام؟

اقتحما رجلي الأمن المكتب في حدة وهما يطلبان من هشام الخروج من المكان ، أشار لهما المدير بالخروج ثم ربت على كتف هشام محاولًا تهدئته، دفع هشام يده صائحًا في غضب:

- من طلب منك وضع هذه الجملة على الغلاف الأمامي يا منصور؟

ربت على كتفه مرة أخرى قائلًا في لهجة أرادها هادئة للغاية:

- أنت من طلبت هذا، ألا تذكر؟

ارتد جسد هشام إلى الخلف في حركة حادة، ثم صاح في استنكار:

- أنا؟!

أجابه منصور في حذر:

- نعم، أنت

صاح هشام في غضب شديد:

- أنا لم أطلب منك هذا أبدًا أيها الكاذب، أنا أذكر اتفاقنا جيدًا.

ظهر على المدير الخوف من رد فعل هشام المباغت، ضغط زرًا خفيًا أسفل مكتبه لاستدعاء رجلي الأمن من جديد، دار هشام حول المكتب ليواجه المدير قائلًا في تهديد واضح مخيف:

- ألقي عليك السؤال للمرة الأخيرة، من طلب منك أن تضيف هذه الجملة غير المتفق عليها على الغلاف الأمامي من الرواية؟

تدخلا رجلان الأمن سريعًا لمنعه من التعدي على مدير الدار، جذباه إلى الخلف في قوة، امتنع عن الإمتثال لهما وهو يصرخ:

- من طلب منك كتابة هذه الجملة أيها المخادع، من؟

ظل المدير ملتزمًا الصمت وهو يرمقه بحذر، أثار ذلك حفيظة هشام وحدته أكثر فقاوم بشراسة رجلي الأمن وهما يجذبانه خارج المكتب، صاح في انفعال:

- تكلم، بصمتك هذا ستوردني موارد التهلكة، تكلم.

ألقى منصور نظره إلى الأرض في خجل، خرج الجميع من مكاتبهم استجابة لصياح هشام الحاد، دفعاه رجلان الأمن خارج الدار في غلظة، وقف هشام حائرًا، ماذا يفعل؟ تسائل في خوف:هل سيكون هو كبش الفداء؟

شعر بحاجته الشديدة للبكاء، لم تكن أول مرة تحدث له فاجعة، ولكن كان رد فعله دائمًا هو الغضب والسخط والانفعال وليس البكاء، ربما لشعوره بالعجز وقلة الحيلة! غمره إحساس مفاجئ باليتم بالرغم من وفاة والديه منذ أكثر من عشر سنوات، فجأة انتبه لحل بسيط للغاية، عاد إلى الدار مسرعًا في لهفة، منعاه فردي الأمن في صرامة، فأخرج هاتفه المحمول وأجري اتصالا بمدير الدار، سمع المدير يجيبه في خفوت:

- هشام أنا لم أكن...

قاطعه هشام قائلًا في لهفة:

- الحل بسيط للغاية، اسحب الطبعة الأولى من المكتبات الآن قبل أن يقرأها عدد كبير، وبهذا نكون قد وأدنا الخطر قبل استحاله.

لم يكن باستطاعة المدير عمل ذلك، زاد عجزه من حدته فهتف :

- لقد سبق السيف العزل يا هشام.

بلغ انفعال هشام أقصاه فصاح مغضبًا:

- لم يفلت شيئًا من بين أيدينا بعد، أعطي أوامرك وستسحب كل النسخ من السوق في خلال ساعة على الأكثر، هيا أفعلها.

لم يسمع هشام إلا الصمت، فصاح في حدة:

- لا تبيعني بثمن بخس يا منصور، لا تبيع صداقتنا مهما كان الثمن.

لن يستطيع أحد تخيل ما يمر به مدير الدار من العذاب النفسي الهائل، لم يكن يدرك أهمية كتابة تلك الجملة ولا خطورة وضعها، لقد أذعن لذلك الشخص الذي طلب منه وضع تلك العبارة خوفًا من تهديده الخفي، لعن حظه العاثر الذي أوقعه في طريق صديقه. في تلك الأثناء كان هشام قد انطلق بسيارته إلى الشخص الذي سيخلصه من مأزقه العسير هذا.

****

بات الجميع في ليلة ليلاء، لم يستطيعوا النوم في وضع مريع، حيث امتلأت غرفة الحجز عن آخرها، لم تسمح لهم مساحة المكان الضيق بالتمدد وفرد أرجلهم بحرية، امتلأت قلوبهم غيظًا وحنقًا فصاح أحدهم :

- القانون لا يسمح لهم بحبسنا في هذا المكان المزري.

أجابه آخر:

- نعم معك حق، إنهم يخالفون القانون في صراحة فجة.

اندفع ثالث يقول في غضب:

- ما يحدث هنا لن أقبله على الإطلاق، إننى لا أستطيع التنفس بسبب هذا الزحام والتكدس.

لم يتحدث حسام ولا مدربه بكلمة واحدة منذ دلفوا غرفة الحجز، أسند حسام ظهره إلى ظهر أحد زملائه، حاول الهروب من آلامه بالتفكير في ما آلت إليه الأمور من سوء، إنه يعترف في قرارة نفسه بأنه بدأ يميل إلى الطمع، مبادئه القديمة أمست تبهت شيئًا فشيئًا، أضحى السعي خلف المال سيد المبادئ الجديدة. كان مدربه أيضًا يقاسي فى هذا الوضع القاسي، لم يكن شوقي يأبه لنفسه كثيرًا على الرغم من وضعه الذي لا يناسب حالته الصحية الراهنة، والبرد الذي ينخر في عظامه في هذا المكان الرطب، بالرغم من كل ما يعانيه، كان يحز في نفسه كثيرًا وضع حسام نفسه؛ فوضعه هو الأكثر تعقيدًا، الكل سيخرج في القريب، عداه، لكنه عرف حسام دائمًا قويًا صلبًا لا يلين، سيتحمل حتى النهاية دون جزع أو ضعف، وإلا ستكون نهايته المؤبد أو حبل المشنقة؛ فتهمة الإرهاب لا مزاح فيها، وحسام يعرف ذلك جيدًا، يعلم أن مستقبله هو وأسرته أصبح على المحك، قطع أفكاره تنهيدة قريبة منه جعلته يلتفت إلى صاحبها قائلًا له في إشفاق:

- تمالك نفسك يا فتى، لم يبدأ شيء بعد.

ابتسم حسام ابتسامة حزينة باهتة وهو يقول:

- أنت تصب اليأس في قلبي صبًا.

أجابه شوقي في صلابة:

- بل أريدك أن تستعد جيدًا، ليس لديهم دليل على تورطك في هذه القضية، سيضغطون عليك بشتى الطرق حتى ترضخ لهم تمامًا بعد أن يعتري نفسك اليأس.

صمت حسام قليلًا ثم قال في أسى:

- لا فارق، سيفعلون ما يريدون في النهاية.

لم ينبس مدربه بكلمة، فقد شعر أن الكلام لن يكون له فائدة مرجوة.

****

اندفعت الدماء في عروقه بسرعة طائرة نفاثة تعمل بمحركات توربينية قوية، تميزت نفسه من الغيظ بسبب ما أحل به، فلم يسمح له بالنوم إلا في مكتب المقدم فتحي، وبالرغم من حرص الأخير على معاملته باحترام وتبجيل، لكن ذلك كله لم يشفع عند عصام أبدًا، فهو ما يزال يعامل معاملة السجين، يشعر بطعنة نجلاء قد نفذت إلى كبريائه فأصيبت في مقتل، ضف على ذلك آلامه التي يعانيها من جراء مواجهته البارحة. توقف أمام النافذة يتأمل الناس القليلة في هذا الوقت المبكر من اليوم، بدأ يتخيل أن الناس تنظر إليه في اهتمام كأسد محبوس في قفص حديدي لا يستطيع الخروج منه، تطلع إلى ساعته التي أشارت إلى السادسة صباحًا، ما زال أمامه ساعتين حتى يأتي المقدم فتحي إلى مكتبه، سينتظره حتى يأتي ثم ينطلق معه إلى التحقيقات، التحقيقات التي إما أن تبرأ ساحته، أو تدينه إلى الأبد.

****

كانت محاولته الخامسة للإتصال بالمقدم عصام، عندما أتاه صوته الصارم :

- ماذا هناك يا هشام؟

رد هشام في ارتباك:

- سيادة المقدم أنا أحاول الاتصال بك منذ أمس ولكنك لا تجيب.

قال عصام في برود:

- أعرف ذلك، ماذا هناك؟
- هناك كارثة لم أكن طرفًا فيها يا سيادة المقدم، أقسم لك.

جذبت العبارة انتباهه بشدة فتسائل في قلق:

- ما الذي حدث يا هشام؟

اندفع هشام يخبره بكل ما حدث منذ فوجئ بالأمر وحتى هذه اللحظة، لم يقاطعه عصام لحظة واحدة، فقد كان يريد معرفة كل التفاصيل بلا استثناء،

انتهى هشام من حكايته وانتظر الرد في فضول، طال الصمت حتى ظن أن الإتصال قد انقطع، تردد قبل أن يتسائل:

- سيادة المقدم ما العمل؟

قال عصام في هدوء عجيب:

- يبدو أنهم نجحوا في الوصول إلى هدفهم بمهارة، يريدون حماية أنفسهم إذا ما جاء الخطر ليحصدهم حصدًا، فيبدون أمام الناس أبطالًا وأنهم أصحاب قضية عادلة، لكن لا تخف لن يصيبك شيء، أنا أضمن لك هذا.

تنفس هشام الصعداء ثم قال في ارتياح:

- أشكرك كثيرًا يا سيادة المقدم.

أغلق عصام هاتفه ثم وضعه أمامه وهو يفكر في استغراق، اقترب موعد الحسم، سيسترد كرامته كما كانت من قبل، المهم أن يخرج من أمام لجنة التحقيقات نظيفة ساحته.

****

أخلى سبيل الجميع، عدا حسام ومدربه وبعض المتهمين في قضايا أخرى، بعدما وجهت إليهم اتهامات من اللواء مجدى شخصيا، حيث اتهمهم بأنهم من ارتكبوا عملية اقتحام المركز الطبي؛ طبقًا لما وصل إليه من معلومات عن طريق عصام نفسه.

قال المدرب مداعبًا:

- فقط أستطيع فرد قدمي بحرية دون الخوف على مشاعر أحد.

ابتسم حسام ابتسامة حزينة وهو يقول:

- أنت تستطيع الآن فرد جسدك كله وليس أقدامك فقط.

تنهد شوقى قائلًا:

- لقد كبرت على هذا الوضع كثيرًا، ألا يضعون أي اعتبارات للأعمار الكبيرة هنا؟

تهكم حسام قائلًا:

- بلى، لذا أخرجوا الجميع وتركوك تأخذ حريتك في المكان كله.

ضحك المدرب حتى بدت لهاته، وشاركه الجميع في قهقهات عالية، الجميع عدا قائلها نفسه الذي بدا عليه الحزن والشرود وهو ينظر تجاه الباب؛ كان يخشى من أن تقيد حريته إلى الأبد، تطلع إليه مدربه في صمت ثم قال مداعبًا:

- هل تخشى الحبس لمدة طويلة؟ المفترض أن تكون قد تعودت على هذا؛ فأنت متزوج منذ سبع سنوات على الأقل.

ابتسم حسام بالرغم منه، تشبيه الزواج بالسجن أمر شائع في مصر، لكنه سجنًا أثمر أطفالًا رائعين وزوجًا محبة وحياة هادئة، أما السجن الحقيقي فشيء آخر لم يتخيل معايشته قط، التفت إلى مدربه قائلًا في أسف:

- أنا آسف للغاية؛ فأنا من وضعتك في هذا الوضع العسير.

أجابه المدرب في حماس:

- أما أنا فلا، كان هذا هو أفضل عمل في حياتى كلها.

تطلع إليه حسام مستغربًا، فأردف في ابتسامة واسعة:

- أنقذنا يحيى بفضل الله ورحمته، لن أحزن إذا بقيت في السجن مقابل ذلك عشر سنين كاملة.

نطق وجه حسام سعادة واطمئنانًا بعد الذي سمعه من مدربه العجوز، تعجب من تجلده وهو الذي تجاوز العقد السادس من عمره، عادت له روحه المثابرة الصبورة القادرة على تجاوز المحن مهما كانت صعبة وعسيرة، لم يفسد هذه اللحظات السعيدة سوى صوت الباب الحديدي الذي فتح مصدرًا صريرًا مزعجًا، ثم ظهر على عتبته آخر من يتوقعون رؤيته، كان عصام الذي ينظر إليهم في صرامة شامتة، بدا على وجهه خدوشًا وكدمات من آثار قتالهما السابق، أمر بإخراج المساجين الأربعة مؤقتًا، توقف أمامهما في صمت وتشفٍ ثم جلس على الأرض قائلًا في حزم:

- لقد فاجأتكم رؤيتي أليس كذلك؟

تبادل حسام مع مدربه نظرة سريعة ثم قال الأول في تهكم:

- ربما، ولكني لم أتفاجأ برؤية الضمادات التي تزين وجهك.

انعقد حاجبا عصام في غضب، تدخل المدرب لتخفيف الأثر الذي تركه كلام حسام في نفس الآخر قائلًا في رجاء:

- لا ينبغي أن يكون هذا ردك؛ فبهذا تسد كل أمل في النجاة.

قال حسام في لا مبالة وهو يتطلع إلى عصام في تحد:

- لا تلقي بالًا يا كابتن؛ فالمقدم عصام لن يألو جهدًا في وضع العراقيل أمامي حتى يسد في وجهي كل أبواب النجاة.

قال عصام في حزم غاضب:

- أنت لن تعاقب على تهمة لم تفعلها، ستعاقب على ما جنيته بالفعل، السن بالسن والجروح قصاص.

هتف حسام في تهكم امتزج بالمرارة في مزيج عجيب:

- عن أي قصاص تتحدث؟ لا تلق الاتهامات جزافًا لتؤكد صحة استنتاج، أو لتنام قرير العين مستريح الضمير.

سأله عصام في حدة وهو يقوم واقفًا:

- لقد اقتحمت المركز الطبي، أليس كذلك؟

قام حسام واقفًا بدوره وهو يصيح في حدة أشد:

- وماذا في هذا، هل كنت تريدني أن أسلم نفسي لليأس وأنا اتطلع إلى ابني وهو يعاني الأمرين دون أن أحاول فعل شيء؟!

لم ينبس عصام ببنت شفة، فاستطرد في مرارة:

- أنت لم تختبر ذلك الإحساس من قبل بالتأكيد؛ فمستشفيات الشرطة كانت لتتسابق على إجراء العملية في أسرع وقت إذا أصيب ولدك، لم تقاسي رؤيته في منامك يطلب منك إنقاذه لأنه يتعذب بشدة، لم تجرب أن يتم طردك من مستشفى خاص لأنك ببساطة لا تملك المال الكافي، لم تذق مرارة اليأس والعجز والإستسلام، لم تحاول أن تخض قتالًا لست مستعدًا له وقد يكون فيه هلاكك لتنقذ فلذة كبدك، لم تجازف بكل ما لديك أنت وزوجتك ليظل ابنك على قيد الحياة، أنت مجرد شخص أناني أغمض عينيه عن رؤية أي شيء سوى الإنتقام.

ظل عصام على صمته وقد بدا عليه التأثر بالرغم منه، لكنه مع هذا لم يستطع التغلب على نفسه المتأففة العنيدة، كانت مشاعر الإنتقام ما تزال لها الغلبة وإن خفتت حدتها كثيرًا

عن ذي قبل، قال في صرامة:

- لن تهزمني بمجرد إلقاء خطبة مؤثرة، لن يتغير موقفي قيد أنملة.

ثم استطرد في لهجة لا تقبل نقاشًا:

- ستعرضون اليوم على النيابة العامة للتحقيق معكم في قضية اقتحام المركز الطبي.

قالها ثم انصرف مغادرًا في سرعة و متحاشيًا النظر إليهم، تطلع حسام إلى مدربه في يأس، قال المدرب في استسلام:

«اللي مكتوب على الجبين لازم تراه العين»

تمتم حسام مؤيدا:

- نعم، لازم تراه العين.

قال عبارته ثم جلس على أرضية الحبس في استسلام.

****

الثالث والعشرون من شهر يناير، عام ألفان وأحد عشر.

عرض حسام ومدربه على النيابة في تمام الساعة العاشرة صباحًا، ولمدة ساعتين كاملتين استجوبهما وكيل النيابة، الذي ضغط عليهما بقوة للإعتراف بارتكابهما جريمة اقتحام المركز الطبي، إلا أنهما ظلا على موقفهما من الرفض والإنكار الكامل للتهم.
التفت وكيل النيابة للكاتب قائلًا:
- يحبسا على ذمة التحقيق لمدة أربعة أيام من الآن.
خاطب حسام وكيل النيابة قائلًا:
- أرجو منك يا سيدي أن تشفق على مدربي من الحبس في هذه الأيام الباردة؛ فهو في السبعين من عمره ولن يستطيع التحمل.
حدجه وكيل النيابة في صرامة قائلًا:
- إنه متهم مثلك في نفس القضية، لذا سيظل في الحبس أربعة أيام هو الآخر، وبالنسبة للبرد سآمر بصرف دثارين لكما.
انطلقت سيارة الترحيلات تقلهما مع المساجين الآخرين، ربت حسام على كتف مدربه فيما يشبه الاعتذار وهو يقول له:
- يبدو أنني صرت مصدر شؤم لك يا كابتن شوقي.
ابتسم المدرب وهو يخفي نفسه في معطفه الشتوي اتقاء للبرد الذي يقتحم سيارة الترحيلات كعاصفة صغيرة قائلًا:
- هذا قدرنا الذي لا نستطيع الفرار منه مهما حاولنا.
قال حسام في يأس:
نحن نحتاج إلى معجزة هذه المرة.
ابتسم المدرب قائلًا في ثقة:
- لم ولن ينتهي زمن المعجزات ما دام الله موجود يا حسام.
نظر حسام من خلال النافذة الصغيرة متفكرًا فيما قاله مدربه ومتسائلًا في حيرة:
- هل من الممكن أن تحدث معجزة في هذا الزمن المادي؟
****

الخامس والعشرون من يناير «عيد الشرطة»

بكت نادية في حرارة، أشفق الجميع عليها من مضاعفات اإنفعال، لكنها تسائلت خلال دموعها في حدة:
- لمَ لم تبلغوني بالأمر منذ البداية؟ كنت أشعر أنه في خطر بالفعل.
قالت والدتها في إشفاق:

- لم نشأ إخبارك في بداية الأمر؛ كنا نأمل أن يكون ما حصل مجرد حادث عابر وسيخرج بعد يوم أو يومين على الأكثر.

سألت في لوعة:

- هل ضاع حسام منا للأبد؟

أجابها والد حسام في حزن وألم:

- لقد عرض على النيابة اليوم مع مدربه، ثم تم حبسهم أربعة أيام على ذمة التحقيق.

قالت وهي تنتحب من الحزن:

- دعوني أراه في سجنه، لن أتركه وحده، لا بد أن أكون بجانبه.

قال والدها في سرعة محاولًا تهدئتها:

- حاولنا ذلك لكننا لم نستطع؛ فإدارات السجون منعت أي زيارات للمسجونين بسبب المظاهرات بالخارج.

قالت في امتعاض غاضب:

- وما علاقة هذا بذاك؟

أجابها والدها:

- إجراءات أمنية تحسبًا لأي أفعال إجرامية لاقتحام السجون.

سألت في حيرة:

- ولماذا توجد مظاهرات بالخارج؟
- اليوم عيد الشرطة يا ابنتي، وقد استغل البعض هذه المناسبة للقيام بمظاهرات كبيرة زحفت لعدة محافظات أخرى بخلاف القاهرة.

سألت في رعب:

- هل هناك خطر على مما يحدث مما يحدث؟

قال والدها:

- لا، هو في مأمن تمامًا من الأحداث في الخارج، اطمئني يا نادية.

لم تستطع الإطمئنان أو الإرتياح أبدًا، دق ناقوس الخطر داخلها بقوة، بدت أنفاسها بطيئة كأنها عجوز تمشي في خطوات وئيدة.

****

قامت الثورة المصرية في أنحاء البلاد قاطبة، امتلأت الشوارع بطوفان من البشر، خرجوا للتعبير عن مطالبهم المشروعة وأحلامهم المكبوتة، وصلت هذه الأخبار إلى المحبوسين بالداخل، لم يصدق حسام أذنيه، كان هذا أكثر مما يتخيل بكثير، تصايحوا في انفعال طاغٍ وفرح عامر ، صاح المدرب بصوت مرتفع للتغلب على أصواتهم:

- ألم أقل لك يا حسام، لم ينتهي زمن المعجزات بعد؟

أجابه حسام وهو يهز رأسه نفيًا:

- حتى لو حدث بالفعل فلن يمثل لنا فارقًا هنا.

ثم أسند رأسه للجدار يستمع إلى أصوات المتظاهرين الصاخبة، استمر صياح المحبوسين في حماس قبل أن يظهر مأمور السجن وخلفه خمسة من مساعديه قائلًا في صرامة:

- أستطيع الآن أن أقضي عليكم كلكم دون مسئولية؛ فالجميع مشغولون في الخارج ولن يكترث أحد بكم، خذوها مني كلمة، مهما فعلتم لن تخرجوا أبدًا من هنا إلا إلى المحاكمة أو القبر، هل فهمتم؟

لم يرد أحد منهم من الفرق والخوف، فاستطرد في زهو صارم:

- لا داعي للأمل؛ فالأمل طمع، ستمكثون هنا حتى تقفون أمام القضاء لإصدار الحكم النهائي، ثم تقضون فترة عقوبتكم في أحد السجون حتى تنتهي فترة العقوبة، غير هذا السيناريو لن يحدث شيء، هل فهمتم؟

لم يعجبه سكوت الجميع، فكرر في صرامة رهيبة:

- هل فهمتم؟

رد عليه الجميع في سرعة:

- نعم فهمنا

حدجهم بنظرة صارمة غاضبة قائلًا:

- إذًا لا أريد سماع صياحكم القبيح مرة أخرى.

غادر المكان وخلفه مساعديه الخمسة مكفهري الوجوه، تاركين الجميع في إحباط ويأس، بعد أن كان قد تسلل إلى قلوبهم الأمل في الخروج من هذا السجن إلى الحرية.

****

أربعة أيام قضوها في حبسهم الذي انتشرت فيه رائحة العطن وبدا كأنه قبر للأحياء، جاء اليوم الخامس من الثورة على شاكلة ما سبقه من أيام، نام المدرب شوقي على الأرضية الرطبة في إرهاق واضح، بجواره تمامًا استند حسام إلى الجدار ذو الدهان المتهالك والذي ترك أثرًا على سترته، بغتة سمعوا صوت رصاص ينطلق في غزارة، أعقبه جلبة هائلة وأصوات أقدام تجري في كل مكان، مع صيحات مذعورة وأخرى متوعدة، فتح باب السجن في عنف، اندفع إلى الداخل ثلاثة ملثمين يحملون مسدسات كبيرة، أمروا الجميع بالخروج فورًا من السجن كله، اندفع الجميع فارين في تخبط

كبير وهم لا يصدقون أنفسهم من فرط غرابة الموقف، اندفعوا إلى الخارج دون النظر خلفهم، فوجئوا بأمواج هائلة من المتظاهرين تمشي في الطرقات، اختلطوا بهم في سهولة ليضيع أي أثر لهم، صاح حسام محاولًا التغلب على الأصوات التي تهدر كالأمواج الهائلة:

- ما الذي نحن فاعلوه الآن، هل نذهب إلى وزارة الداخلية، أم ننتظر حتى نتأكد من موقفنا القانوني؟

تكلم المدرب في أذنه حتى يسمعه، فلم يكن قادرًا على الصياح:

- بل ننتظر وسأسال محاميًا جنائيًا في هذا الشأن.

رد حسام في ارتياح:

- جيد؛ فأنا لا أحب الرجوع إلى ذلك المكان البغيض مرة أخرى.

اختفوا تمامًا في البحر الهائج من البشر، حباهم القدر فرصة نادرة للرجوع إلى بيوتهم مرة أخرى.

****

النهاية

- استيقظي يا نادية

دلف إلى أذنيها صوت مألوف لا تعرف من أين أتى، تطلعت حولها تبحث في حيرة.

«استيقظي يا نادية»

كان الصوت هذه المرة واضحًا للغاية، فتحت عينيها في دهشة، طالعها وجه حسام يبتسم لها ابتسامة واسعة ملأت أركان قلبها سعادة واطمئنانًا، لم تصدق ما تراه، أغمضت عينيها ثم فتحتهما مرة أخرى، قالت بلا وعي منها:

- إنه حلم.

قال حسام في رقة وهو يمسك يديها في حنان بالغ:

- لا يا حبيبتي، إنها حقيقة، أراد الله أن يجمع شملنا مرة أخرى.

تطلعت إليه كالمبهورة، شددت على يد حسام التي تمسكها في قوة على الرغم من ضعفها، تريد أن تصدق أنه ليس مجرد حلم، مسح على شعرها في رفق قائلًا في ارتياح عميق:

- لن تخافي بعد اليوم، انتهى عهد الحزن والخوف والقلق، وحل مكانه عهد السعادة والطمأنينة.

نطق وجهها بسعادة لا مثيل لها، ضحكت ربما لأول مرة منذ بدأت تلك المأساة، التفتت إلى ابنها تتحسس وجهه في حنان، انتبهت لأول مرة أنهم

ليسوا بمفردهم، كانت الغرفة مليئة بأفراد من أسرتها وأسرة حسام الذين كانوا يتطلعون إليها في سعادة لا تحتاج إلى بيان.

****

وقفا يتطلعان إلى النادي الرياضي في حزن بالغ، التفت حسام إلى مدربه يرجوه أن يرجع عن قراره، حاول إثناءه عن ما عزم دون جدوى، كان قراره حاسمًا صارمًا كعهده به، سار المدرب بين الصالات الرياضية يطالعها في حزن مزق قلبه، ستكون المرة الأخيرة له في هذا المكان الذي بذل كل جهده لتشييده على هذا النحو، صافحه الجميع في حزن وأسى، حيثُ كان بمثابة أبًا روحيًا لهم، فلقد تعلموا منه الكثير، ليس في مجال الرياضة فقط، بل في سائر أمور الحياة، لحق بهم أيمن والأسى يغمر وجهه قائلًا:

- هل صحيح ما سمعت يا كابتن شوقي؟

قال في بساطة:

- نعم، كان ينبغي ألا أسير في هذا الطريق أبدًا؛ فهو طريق ملعون.

سأله حسام في استغراب:

- لماذا هو طريق ملعون؟
- لأنه طريق الطمع والشراهة لجمع المال، من سار في ركابه هلك.

قال حسام في اعتراض خفي:

- المال ضروري للحياة.
- بالتأكيد يا حسام، لكن إذا كان هدفك جمع المال فقط ستهلك.

توقف حسام بغتة وهو يسأل في رجاء:

- لماذا اتخذت قرارك هذا بحق يا مدربي العزيز؟

تطلع المدرب إلى وجهه لحظات قبل أن يجيبه قائلًا:

- خشيت أن أفقدك يا حسام.

سأله حسام في دهشة:

- ماذا، هل فعلت ذلك من أجلي؟

أخرج المدرب تنهيدة حارة وهو يقول:

- ومن أجلي أنا أيضًا؛ فقد أنكرت نفسي كأني لم أكن أعرفها منذ سرت في هذا الطريق.

ظلا حسام وأيمن صامتين في تأثر، فاستطرد في حزن:

- غلبت علي فكرة جمع المال بأية طريقة، ففكرت في هذه الفكرة الشبيهة بما يحدث في أوروبا وروسيا، لم أهتم كثيرًا بما قد يحدث

للشباب الذين كانت ستأثرهم هذه الفكرة، حتى كدت أن أفقدك، تصارعت مع نفسي كثيرًا، كانت تغلبني مرة وأهزمها مرة.

صمت للحظات قبل أن يستطرد مرة أخرى:

- أنا شيخ كدت أبلغ السبعين، لم يتبقى لي الكثير في هذه الحياة، أريد أن أختم حياتي بهدوء، سأعيش بما تحصلت عليه من مال من شركائي السابقين، لا أريد أن أختم حياتي وأنا أسعى خلف المال كالكلب المسعور.

غالب حسام حزنه قائلًا:

- وماذا سيفعل شركائك بهذا المكان إذًا؟

مط شفتيه الرفيعتين وهو يقول في لا مبالاة ظاهرة:

- سيكملان النشاط بالتأكيد؛ إنهم في النهاية رجال أعمال.

قال هذا ثم دفعهم في أكتافهم هاتفًا:

- هيا نخرج من هذا المكان في الحال فلم أعد أطيق المكوث فيه أكثر من ذلك.

هموا بالخروج من المكان عندما تفاجأوا بالمقدم عصام واقفًا قبالتهم، بدا وجهه مختلفًا عما اعتادوه منه من قبل؛ فلم تعد مشاعر الانتقام تطفو على نفسه وتغوص في فؤاده وتسيطر على روحه، ربما أحداث الثورة التي يحيون كل لحظة منها غيرت موقفه، جعلته يرى الأمور من زاوية أخرى، لم يعد عصام الغاضب الحانق الذي يبغي الإنتقام فقط، حتى وهو يعلم في قرارة نفسه أن حسام لم يقصد هذا أبدًا، كل ما قصده هو إنقاذ ابنه من مصير مظلم، لو كان مكانه لتجاهل القانون نفسه على أقل تقدير، لو كان مكانه لصار قاطع طريق يسرق أموال الناس ليجمع المال الكافي لإجراء العملية، لو كان مكانه لفعل أكثر مما فعل حسام ألف مرة.

بادره المدرب في سرعة وقلق قائلًا:

- لقد تحدثت مع محامي وقد أكد لي أن موقفنا سليم من الناحية القانونية؛ فلم نهرب بإرادتنا وإنما أجبرنا على الخروج من السجن.

ابتسم عصام قائلًا في هدوء:

- ليس هذا ما دفعني للمجيء اليوم، وإنما جئت لسبب آخر.

سأله حسام مبتسمًا:

- هل جئت لقتلنا بيدك لتطفئ نار الانتقام في داخلك؟

نظر إليه عصام في غير عداوة ثم قال وهو يهز رأسه نفيًا:

- لا، لن ألوث يدي بدمائكما، سأتنازل عن اتهاماتي لكم وستكونون أحرارًا من ملاحقة القانون إلى الأبد.

قال المدرب في سعادة لا تصدق:

- أخيرًا تغلبت على مشاعر الانتقام يا سيادة المقدم، هذا أسعد خبر سمعته في حياتي، إنها لحظة فارقة بحق.

قال عصام في بساطة وصدق:

- نعم، لم تعد مشاعر الانتقام تسري داخلي كالحمم الملتهبة؛ فالأيام التي نحياها الآن كفيلة بأن تجعل الإنسان يعيد النظر في كثير من المسلمات التي كان يؤمن بها.

غادر بعدها عصام المكان في سرعة دون استئذان، تسائل المدرب في دهشة:

- هل نحن في حلم الآن؟ أنا لا أصدق ما سمعت ولا ما رأيت.

صمت حسام فترة قبل أن يقول في صوت هادئ:

- بل صدق يا كابتن شوقي فلكل شيء نهاية، وهذه نهاية قصتنا.

احتضنه مدربه في سعادة بالغة وهو يربت على كتفه في قوة.

****

لم تكن المرة الأولى التي يزور فيها المدرب شوقي حسام في بيته، إلا أن هذه المرة كانت مختلفة اختلافًا جذريًا، كان الجميع سعداء مسرورين على عكس ما رآهم في زيارته السابقة من الحزن والألم، حمل يحيى على يديه في رفق وحذر، لثم جبينه في حنان أبوي قبل أن يقول مداعبًا:

- كم جاهدنا وتحملنا من أجل هذه اللحظة العظيمة، اللحظة التي نراك فيها تسير وتلعب كما كنت تفعل دائمًا يا بني.

لثم جبينه مرة أخرى ثم وضعه على الأرض في رفق، ما إن وضع قدميه على الأرض حتى جرى ناحية أمه التي تجلس على أريكة منفردة ليلقي بنفسه بين أحضانها، تجاذبا والد حسام ومدربه أطراف الحديث في احترام متبادل، شكره الوالد بحرارة على كل ما بذله من مجهود للحفاظ على حياة حفيده، لم يزد المدرب إلا تواضعًا وأدبًا، كان الجميع يتبادلون الأحاديث والنكات المرحة ويتناولون المشروبات الدافئة وسط جو من الدفء والسرور، لم يقاطع لحظاتهم السعيدة سوى طرقات هادئة على الباب، ذهب أحدهم لرؤية القادم ليطالعهم المقدم عصام وزوجته ينتظران الإذن للدخول، هب حسام واقفًا لاستقبال الوافدين، صافح عصام باحترام كبير

قبل أن يلتفت لمصافحة زوجته أيضًا، التفت إلى عصام مرة أخرى قائلًا في امتنان:

- لا أستطيع أن أصف لكما سعادتنا لحضوركما المشرف إلينا.

قال عصام وقد علت وجهه ابتسامة صافية:

- الحقيقة أن زوجتي أصرت علي المجيء لرؤية يحيى والإطمئنان عليه، ولم أستطع الرفض بالطبع؛ فقد كانت أمنيتها الوحيدة.

نظرت نادية إلى نسرين في امتنان قائلة:

- يكفينا شرفًا أن تزورانا هنا في بيتنا المتواضع.

داعبت نسرين يحيى في حنان، ثم قالت في لهجة حملت بين طياتها اعتذارًا خفيًا:

- هذا أقل ما يمكننا فعله لصغيرنا العزيز يحي.

تدخل عصام قائلًا في هدوء:

- يحيى يستحق منا كل الدعم والحب.

تحدث الجميع عن الثورة وما رافقها من أحداث سعيدة وأخرى أليمة، ثم تكلم والد حسام قائلًا:

- عندما فكرت فيما حدث خرجت بحكمة ربما تنفعكم في أيامكم القادمة.

التفت الجميع إليه في فضول فاستطرد:

- لقد دار بينكم صراعًا قويًا كاد يهلككم تمامًا، وعندما تفكرت مليًا وجدت أن السبب الرئيسى هو عدم الثبات على المبدأ.

تسائل المدرب في اهتمام شديد:

- كيف يا سيد مجدي؟

صمت قليلًا كأنه يستعد لإلقاء محاضرة ثم قال:

- اعذروني جميعًا لما سأقول، قد أبدو صريحًا بعض الشيء، ولكن الواجب يحتم علينا المصارحة والوقوف على الأسباب، ما حدث كان سببه أن كلًا منكم تغيرت نفسه.

ثم التفت إلى حسام:

- حسام لم يعد الشخص الواقعي الذي يقنع بحياته البسيطة، صار شخصًا آخر، كل همه هو جمع المال حتى لو جاء من مباريات غير قانونية، لم أشأ التدخل يا بني فلم تكن لتستمع إلي، ولا شيء أصعب على الأب من عصيان ولده له.

ثم التفت بعينيه إلى المقدم عصام قائلًا:

- وأنت يا سيادة المقدم اسمح لي بقول كلامًا قد لا يعجبك، ولكن يعلم الله أن في القلب لك تقديرًا واحترامًا شديدين.

أسرع عصام بالإذن له فأردف الوالد قائلًا:

- أنت رجل شريف عفيف تبغي مصلحة وطنك وحمايته من الأعداء والمجرمين، وكنت مثالًا للقوة في سبيل الحق، تغلب مصلحة الوطن على مصلحتك الشخصية، ولكنك سلكت طريق الانتقام، وهو أسوأ طريق قد يسلكه المرء على الإطلاق، لم تلتفت إلى الظروف التي أدت إلى هذا، كان كل همك هو الانتقام ممن فعلوا بك هذا، دون الإلتفات لما قد يصنعه هذا بنفسك من أذى، كاد هذا الصراع يسقطكم جميعًا في بئر الشيطان، البئر الذي لا يستطيع أحد الخروج منه ولو أنزلوا له كل أحبال النجاة، كاد هذا الصراع يسقطكم في المهالك لولا أسقطتم من أنفسكم أطماعكم الشخصية وأهوائكم الشيطانية.

قال عصام في احترام مؤيدًا لكلامه:

- صدقت يا سيد مجدى، لو لم نسقط أهوائنا لكنا سقطنا جميعا في فخ الشيطان.

أيد حسام قوله:

- نعم، إنها أشبه بثورة على النفس.

أيد الجميع قوله في حين نظرت نسرين إلى يحيى في حب، قائلة تداعبه:

- كل ما في هذه الحقيبة هو لك.

أخذ يحيى الحقيبة منها في سرور، ابتسم له الجميع في حب صادق وهم يشاهدونه يفتح حقيبة الهدايا في لهفة، ثم يخرج الألعاب منها في سعادة، لعبة لعبة.

****

تمت بحمد الله